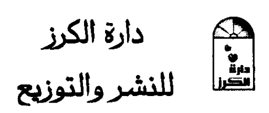
نفيسة عبد الفتاح

للنهر بعض الأسرار

قصص قصيرة



Email:darat_al_karaz@yahoo.com
١٧ ش منشية البكري- مصر الجديدة
ت: ٠٢/٤٥٥١٣٠٤

الكتاب: للنهر بعض الأسرار.
المؤلف: نفيسة عبد الفتاح.
الناشر: دارة الكرز للنشر والتوزيع.

الطبعة الأولى ٢٠٠٥
رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٦٨٣٣
الترقيم الدولي: 977-6156-12-6

طبع في القاهرة

إهداء

إلى من جنتي تحت قدميها

.. إليـــك أمـي

نفيسة



تجدد

١- أغنيـــــة قديمـــــة.

٢- أنـــــت حبيبـــــي.

٣- ســـــيدة الــــــيمام.

٤- دعنـــي أخـــبرك شـــيئا.

٥- في غفلــــة منهـــــا.

٦- كلهــــــن أنــــــا.

١ - أغنية قديمة

أدارت المقبض مرتجفة.. تدعو وتدعو.. هذه المرة كان بداخلها يقين بإجابة الدعاء.. فعلتها.. انتصرت على الباب الموصد إلا من فرجة خفيفة تأخذ منها مشترياتها من يد البواب.. لم تكن تعرف إلى أين؟.. تركت خلفها فرشاة الرسم التي فقدت قدرتها على الغوص في ألوان البهجة. ليلة شتوية قارسة.. بعض الظلمة والخوف من الطريق شبه الخالي أفضل من وحشة الصمت. أدخلت يدها المغطاة بقفاز صوفي في جيب معطفها. اطمأنت إلى وجود بطاقتها الشخصية وعناوين وأرقام هواتف الأولاد.

ابتسمت ساخرة من مخاوفها واستكملت السير. ستة أشهر تقريبا منذ أصيبت بإغماءة عند بائع الخضروات، منذ ذلك اليوم لم تخرج من البيت. كانت تنظر إلى الباب الموصد وتتخيل ما يمكن أن يصيبها لو عبرته.. تخشى أن تسقط في مكان ما.. تصبح جسدا بلا حياة على رف ثلاجة ما لعجوز مجهولة الهوية. كانت ترى الدنيا من النافذة.. تتطلع إليها كظمآن يرى الماء ولا يستطيع مسه. ترقب الهاتف.. ترفع سماعته من آن لآخر لتتأكد من أنه يعمل.. مكالمات الأهل بعيدة.. كل مشغول بنفسه عن الآخرين. ترسم أزهارا ذابلة وسماء رمادية.. تمل ثرثرة التلفاز.. تأتنس بقراءة القرآن في جوف الليل.. آياته وحدها كانت الملاذ والسكن والتربيت الحاني على أوجاع قلبها الوحيد.

أنوار ملونة على واجهة ما يبدو أنه مقهى.. تنمو بهجتها الوليدة.. تحس بأنها على وشك تحقيق انتصار آخر.. لم تدخل مقهى في حياتها من قبل.. تتألق ابتسامتها الطفولية بين غضون وجهها المتعب.. تقرر الإقدام على ما ظنته مغامرة.

تحت الأضواء الخافتة وبجوار النافذة الزجاجية المغلقة اتخذت جلستها. لا تفهم كيف لم تأتها فكرة الاحتفاظ ببياناتها الشخصية في جيبها من قبل؟! سعيدة جدا لأنها ذكرت نفسها بأن الموت ومكانه مسألة قدرية لا يجب أن تفسد ما تبقى لها من عمر.

دارت ببصرها في المكان.. رواد قليلون، ربما بسبب البرد. ستطلب كوبا من القرفة بالحليب وتستمتع بمشاهدة التلفاز وسط الناس. أشارت إلى النادل وطلبت ما تريد. في طريقه إلى الداخل أغلق الجهاز.. تضايقت وأرادت أن تناديه لولا دندنة عود. عزف حي.. انتشت، ملأها إحساس مبهج بأنها من المحظوظين.. عود ومشروب ساخن وبشر.. دفء حقيقي يصالح قلبها المتفتح للسعادة توا.. ليتها زهدت صمت الجدران من قبل.

خطر لها أن الأولاد قد يتصلون فينزعجون لعدم وجودها. ابتسمت ساخرة من الكذبة التي أوهمت بها نفسها طويلا.. الحقيقة إنهم لا يتصلون إلا في الأعياد.. هي التي تقتطع من معاشها الضئيل ثمن مكالمة شهرية لكل منهما في غربته.

ما زال العواد يجهز نفسه بضبط نغمات أوتاره. ارتشفت رشفة ساخنة.. سرى فيها الدفء.. لحن جميل أحسته نبضا يتعالى لحياة

ترفض أن تتجمد في العروق. توهج العزف فتجاوبت معه مشاعرها.. كانت كمفرج عنه بعد طول أسر يدهشها صوت جريان النهر ورقص أوراق الشجر وهي تستحم تحت المطر.

أغنية سعيدة لصوت شجي مميز.. تطلعت إلى وجه العازف المغني، وجه قديم مألوف لا تذكر أين رأته قبلاً. شعره المصبوغ يتوج تجاعيد عمره الطويل.. تحسست بأصابعها منبت شعرها الأبيض تحت غطاء الرأس.. تمنت لو صبغته فربما أنعش تجديده روحها.

أغنية مألوفة أيضا.. ضمت كفيها حول الكوب الساخن وتركت نفسها تنسجم مع الأنغام. لم تستمع إلى تلك الأغنية منذ زمن بعيد.. صفقت بقوة بعد انتهائه وانتقلت لتجلس في مواجهته.

حاولت أن تتذكره، أغنيته التالية لا تقل جمالا عن الأولى.. هو.. نعم هو.. صاحب الأغنية الشهيرة التي كانت تذاع منذ سنوات في برامج الإذاعة الصباحية.. وقتها لم يكد يخلو منها صباح.. هو.. أمجد رامي!.

لا تصدق أن هذا هو ما آل إليه.. مقهى منزو لا يكاد يسمعه فيه أحد!. صفقت بنفس الحرارة وقبل أن يشرع في أغنيته الجديدة انتقلت إلى جواره. حيته مؤكدة له شدة إعجابها به. ابتسم شاكرا.. همست على استحياء:

– تسمح لي يا أستاذ أمجد أسألك سؤالا محرجا.

أومأ برأسه موافقا فارتبكت قليلا ولكنها تشجعت:

– أنت فنان له تاريخ.. لماذا تغنى في مكان كهذا؟.

غامت ملامحه.. أعلنت رقرقة دمعة لمعت في عينيه عن أحزان عميقة.. همس وفي صوته ألم يجاهد لإخفائه:

– على الأقل أجد شخصا مثلك يصفق لي، أما إذا مت في بيتي فسأضمن أن صاحب المقهى سيهتم لغيابي.

وجمت بينما انهمك هو في عزف مقدمة أغنيته التالية.. أغنية قديمة لعبد الوهاب.. كانت كمن يسمعها للمرة الأولى.. أمانة إن كنت تقابله تقل له الفرح ناسيني.. كان كمن يغنى لنفسه بينما أحست هي أنه يقرأ ما بقلبها.. رغما عنها إنسابت دموعها.. كانت تتأمل هذا المعذب الساقط من قمة الضوء إلى ظلمة قاع النسيان.. لا تدرى كيف خرجت تلك الفكرة إلى رأسها.. بدت لها فكرة مجنونة وربما تتنافي مع الأسلوب الذي عاشت به طوال حياتها.. سيغضب الأولاد دون شك.. لا بأس ستخفي الأمر عنهم.. ترددت.. حاولت طرد الفكرة لكنها تسلطت عليها تماما. ما إن انتهى من أغنيته حتى مالت عليه من جديد:

– هل علاقتك بصاحب المقهى جيدة؟.

أجابها متعجبا:

– نعم.

مسحت دمعتها بكفها المرتعشة وهى ترجوه بحرارة:

– هل يمكن أن تتوسط لي عنده.. أستطيع أن أرسم وجوه الحاضرين كل ليلة.

٢ - أنت حبيبي

أول المحرم.. يزدحم الطريق وأنضم صامتة إلى السرب.. نفس الطريق.. أذكر كفي الصغيرة وهى تلوذ بدفء كفك من برد الصباح.. تكبر تكبيرات العيد وأكبر معك بصوت خفيض.. تبسط كفك الأخرى المطبقة على صدقاتك في أكف الآخرين على طول الطريق.. تحرص على أن يبدو الأمر وكأنه مجرد مصافحة.. تتلألأ في وجهك ابتسامة مطمئنة تماما كلألأة الشعاع الفضي للشمس الوليدة على جلبابك ناصع البياض.. تتسلل من تحت طاقيتك خصلة من شعرك الفاحم لتسقط على بياض جبينك المشرب بالحمرة.. تلحق بها أصابعك لتعيدها إلى مكانها.. يمازحك ابن العم المصاحب لنا:

- أنور وجدي يا عمى.

أضحك بسعادة الدنيا:

- أبى أجمل.

تضع عيديتى الجديدة في يدي. رائحتها كرائحتك معطرة بالمسك.

أكبر قليلاً.. تهمس في أذني:

- أنا صاحبك؟.

أتدلل عليك بشقاوة تحبها:

- أنت حبيبي.

تفشل أمي في مصادقتي.. تجهل مفاتيحي.. تشكو كثيرا:

- ابنتك عنيدة.. تجادلني في كل شيء.. أشعر أنها أكبر من

سنها.. أنت وقراءة الكتب خربتها رأسها.

تضمني بذراعيك حانيا معلما:

- لا تغضبيها.. هي أمك.. على فكرة لماذا تفضلين الكتب السياسية عن غيرها؟.

أفصح عن أحلامي:

- أريد أن أصبح وزيرة.

تبتسم ابتسامة باهتة أعرف منها أن إجابتي لم تعجبك.. تضمني بحب وأنت تنصحني:

- المناصب تأتى وتذهب.. أجمل الأشياء هو ما نفعله لجوهره وليس لنيل أهداف من ورائه.. لا أريد أن تشكو أمك من حبيبة قلب أبيها مرة ثانية.

يسعني صدرك يسع أحلامي وهفواتي.. يسع أفراحي وأحزاني.. حتى أيام مراهقتي وبراءة حب لم يخرج عن كونه نظرات مصحوبة بحمرة الخجل.. كل الأسرار والخفايا أعلمك بها فأنت موضع سرى وناصحي الأمين.

أصبح شابة مكتملة.. فقط على أن أختار واحدا من كل هؤلاء الذين يحبونك ليكون زوجي.. بالكاد يعرفونني لكنهم يطمحون إلى شرف مصاهرتك.. أصارحك:

- اخترت خالد لأنه أكثرهم شبها بك.

تتنهد بسعادة وتقبلني على جبيني داعيا الله أن يديم علينا أيام السعادة. أستمع إلى خالد دهشة وأنا أكتشف بعضا من أسرارك:

- والدك هو من رباني بعد وفاة والدي.. لست وحدي من يدين

لوالدك بالكثير.

تتقلص دنياي إلى حجرة صغيرة في مستشفى ترقد أنت على سريرها الوحيد.. أعاند بشدة إصرارك على عقد قراني وأنت في حالتك تلك.. تعلن شفاءك وتصر على الخروج.. بدوت وكأنك قد تعافيت بالفعل.. امتلأت بشرتك بوهج العافية.. داعبت خالد أثناء الحفل بينما تتبع عيني حركتك الدءوبة بإعجاب:

- عريس الليلة هو أبى وليس أنت.

فعلتها يا حبيبي تناسيت أوجاعك لتطمئن على في كنف زوج قبل الرحيل.

أنا الآن في نفس الطريق الذي طالما سرته معك.. طريق يبدأ بالمسجد مرورا بالسوق الكبير وينتهي بالمقابر.. تتوكأ أمي على ذراعي.. طلعة من طلعات الأحياء لزيارة الأحباء.. عشر سنوات على رحيلك وكأنك كنت هنا بالأمس. تتواصل معنا في رؤى منامية.. تبشرني بنجاحاتي للوصول إلى أعلى الدرجات العلمية.. تحذر زوجي من أمر ما.. ألف بشرى وألف مساندة في أيامنا الصعبة.. يسير زوجي أمامي وعن يساره حفيدك الذي يحمل نفس اسمك ويتهادى بنفس طريقتك.. ارقب خالدا وهو يضع صدقاته في أكف الفقراء.. يبدو وكأنه يصافحهم.. تهمس لي أمي وكأنها تريد أن تعرف مني شيئا تخشى أن أتحرج من إخبارها به:

- أنا صاحبتك؟.

تترقرق في عيني الدموع وأهمس:

- أنت حبيبتي.

٣ ـ سـيدة اليمام

عاشقة هي.. مسكونة بطفولة لم تخمش.. متيمة بأزهار حديقة شرفتها التي تبدو كحديقة بابلية معلقة بين السماء والأرض. بينها وبين النيل فضي الوجه نابض القلب والمتهادي عن قرب الكثير من الأسرار.

تلمس تلك الزهرة مداعبة وتربت على تلك حانية، تشفق على العود المتوجع فتداويه أو تغنى للآخر الذابل فينتصب متعافيا ليشاركها حيويتها الدائمة. أناملها الرقيقة تجيد إضاءة ألوان حديقتها بمداومة محو غبار الكون عن الخضرة والأزهار.

لا تمل ابنتها الاتصال مع الإصرار على نفس الجملة:

– يا أمي حرام، أرجوك اقبلي أن تعيشي معي حتى عودة أبى، أنا دائما قلقة عليك.

لا شي في الدنيا يمكن أن يجعلها تقبل مغادرة البيت المعبق بأنفاس الحبيب حتى يعود.

يحادثها حفيدها حديثه اليومي عبر الهاتف:

سنأتي الجمعة القادم.. أريد بطاطا مشوية وسأكون ولدا طيبا، لن أقطف ورودك، سأنظفها وأرويها معك.

تضحك بسعادة طفولية وتداعبه بشقاوة:

– سأعتبره اتفاق رجال لأنك لو قطفتها هذه المرة فستأتي لك في المنام باكية وغاضبة كما فعلتْ في المرة السابقة.

تضع سماعة الهاتف وتمسك بالفرشاة لتستكمل ما بدأت. ترسم خيولا مجنحة بيضاء وطيورا برية برتقالية، صفحة ماء بلورية بها موجات هادئة قشدية. ترسم أسماكا صفراء وخضراء وقرمزية، تبدع في أشجار رمان مملوءة بالثمر وفي نخيل شامخ تلامس خضرة سعفه زرقة السماء وتخطف الأبصار حبات بلحه الحمراء.

تتذكر مبتسمة حديث ذلك الصحفي المبهور بها:

- أشعر أنكِ مسكونة بالجان.. أنت ترسمين رسما مسحورا يأخذ القلب ويحير العقل. من أين يأتي هذا الوميض الذي في عينيك؟! من أين لك الوقت لهذا الإنتاج الغزير لتنجزي لوحات أربعة معارض في عام واحد؟

هي نفسها لا تعرف كيف لكنها واثقة من أنه ليس الجان. تنظر في ساعتها، دقائق ويحين الموعد. تخرج إلى السلم خارج الباب لتضع طعاما للقطط الضالة. تتصل هاتفيا لمتابعة تنظيم معرضها الأول خارج البلاد. تضبط المنبه حتى إذا ما غفت لا يفوتها موعد درس الرسم للموهوبين الصغار الذين يحضرون إليها مرتين أسبوعيا. تنظر إلى صورة زوجها المسافر في رحلة عمل منذ أسبوعين.. أوحشها كثيرا.. تتأمل آخر لوحاته بانبهار وشعور كاليقين بأن أحدا لا يساويه، أجمل لوحاته على الإطلاق هي تلك التي تحمل ملامح وجهها وتبوح ببعض أسرار روحها كما يحلو له أن يصفها. تملأ عينيها من ملامحه بينما هي عائدة باتجاه الشرفة. تعاود النظر إلى ساعتها لتتأكد من أنه الوقت المحدد تماما.

تغترف براحتيها بعض الحب من الإناء المملوء بجوار البـاب. تلمـح الـسحابة القادمـة ترفـرف. تنثـر بعـضا ممـا في يـديها عـلى أرض الشرفة وتظل مفرودة الكفين حاملة بعضه الآخر. تحط الطيور لتلتقط الحب من على الأرض بينما ترفرف اليمامات البرية لتلتقطه من كفيها مباشرة. موعد يومي لا يخطئنه ولا تنساه. تبسمل وتحوقل وهى تفعل ذلك دائما خشية أن تصيبها عين حاسد فتفقـد يومـا كـل هـذا العطاء.



٤ - دعني أخبرك شيئا

كلانا مجهد.. أنا بكل ما يمكن أن يقاسيه قلب أب في موقفي هذا، وأنت لاستكمالك مشهدا لطالما أبعدناك عنه.

لا تندهش لأني اخترت تلك اللحظة بالذات لكي أتحدث معك. هل عذبتك بإصراري على أن تعيش معي تلك الدقائق؟.. تشاركني مقاومة انحناءة العود الناحل المتقوس متصلبا إلى الخلف؟. تؤازرني في التصدي لتلك الدفقات المحمومة التي تنفض أطراف أختك الرقيقة؟. أعلم أنك كنت خائفا من جحوظ عينيها الجميلتين.. تتساءل لماذا أضع قطعة الكاوتشوك بين أسنانها التي تكاد تقضم لسانها؟. أحسست بأنفاسك المتلاحقة وبوجهك المتقع مع زرقة الموت الغازية لجسدها الضعيف. أعتذر لك بشدة لأني آلمتك.. لا تظن أنني أردت تعذيبك.. فقط كل ما أردته هو أن تحس كم هي قاسية تلك اللحظات. أردت أن أرى انفعالاً ما على وجهك.. أردتك أن تبكي.. تصرخ.. تفعل أي شيء تستطيع أن تنفث فيه غضبك فأنا متأكد من أنك بعد ذلك ستستطيع أن تضحك.

سأكون واضحا معك.. أعلم أنك فقدت شيئا فشلت كل محاولاتي في استعادته لك.. لا تنظر إلي هكذا دون أن تنطق بكلمة.. أنا متعب بأكثر مما يستطيع عقلك الصغير أن يتخيل. إن كان تفحصي على هذا النحو حتميا فانظر إلي تجاعيد وجهي التي اقتحمت نضارته في غفلة مني.. أنظر إلى شعيراتي البيضاء التي ستعلنك بأني على مشارف

ضعف من بعد قوة .

أحبك.. إن كنت لا تشعر بفيض مشاعري تجاهك فأنا أب سيء لا يجيد التعبير عن مشاعره. صمتك يعذبني ويقف حائلا دون تواصلنا. أنا في موقف صعب أريدك أن تتفهمه.. لا أستطيع الاستمرار هكذا وعمتك أيضا لا تستطيع .. يجب أن تشاركني قرارا مصيريا، صدقني سأقبل رفضك إذا ما فعلت وأحاول لإيجاد بدائل ترضيك. أرجوك تكلم معي.. الطبيب أخبرني بأنك تتكلم. لقد شاهدتك مصادفة بالأمس ممسكا بصور والدتك.. تفعل ذلك كلما ظننت أنني لا أراك. كيف تظن أنني قد أغضب إذا ما عبرت عن مشاعر حبك أو افتقادك لها.

أعلم أنها أمك وأحترم مشاعرك، لكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الدهشة، فكلما أرسلتك لقضاء إجازة معها اشتدت كآبتك عند الذهاب وبعد العودة. ماذا علي أن أفعل؟. لست بحاجة إلى أن أقسم لك بأنني لم أؤذها.. أثق بأنك كنت على وعي كامل بكل ما حدث بيننا لكنني أيضا لا أريد لك أن تحمل في قلبك الطيب أي ضغينة لها. افهم يا حبيبي.. الانفصال بين الأزواج أمر وارد الحدوث لأننا بشر نتفق ونختلف ونصيب ونخطئ. أي نوع من العقاب هذا الذي تفرضه علينا؟. أتعذبنا أم تعذب نفسك؟. هل أنت غاضب لأنني بقيت في الخارج لعدة أشهر بعد الطلاق وعودة أمك بك؟. انفصالنا على هذا النحو كان ضروريا بسبب بدء العام الدراسي بالقاهرة وظروف إنهاء تعاقدي مع كفيلي والحصول على مستحقاتي

المالية. هل أنت غاضب من أمك لأنها أعادتكما إلى عمتك وتزوجت بآخر؟. عمتك فعلت كل ما بوسعها لإسعادكما على الرغم من كثرة عيالها. هل تعرف معنى رعاية طفلة معاقة وطفل صامت إراديا؟.. لولا مساعدة السيدة رحمة الجارة الأرملة لعمتك لما مرت تلك الفترة بسلام. لقد تطوعت تلك السيدة لرعايتكما لأنها حرمت من الإنجاب.

أنظر إلى أبيك ولا تطأطئ رأسك هكذا.. هل قسوت عليك في يوم من الأيام؟ هل قصرت في أمر من أمورك؟ لا تجعلني أشعر بالظلم، أنا أحتمل ما لا يستطيع رجل تحمله. أريد بيتا هادئا.. أريدك راضيا وأختك آمنة.. لا تبخل على بحقي في أن أعود من عملي فأجد من تؤنس وحدتي وتقاسمني همومي. دعني أخبرك بأني قد اخترت زوجة لكنني لن أتم شيئا إلا إذا وافقت عليها. أكره تعبيرك المحايد هذا.. يخيفني.. يشعرني بأن محاولاتي لإيجاد وسيلة للدخول إلى عقلك وقلبك كلها بلا جدوى. أحتاجك.. أحتاج مشاركتك لي في اتخاذ القرار. ما رأيك في اختياري للسيدة رحمة؟.. انتظر ماذا تفعل؟ لا تدر ظهرك لي.. هل أغضبتك إلى هذا الحد؟!.. أرني وجهك.. نعم استدر لتواجهني أيها الصامت العنيد.. ما هذا؟.. أنت تبتسم!.. تعال إلى صدر أبيك يا حبيبي.

٥ ـ في غفلة منها

أيام الخميس الجميلة أضفت إليها الآحاد. كلما حاصرني الملل وزادت قسوة الصمت تفتق ذهني عن شيء ما لإبهاج روحي.

أدعو نفسي دون دعوة. أعيش حلما بريئا له رائحة الورود وملمس الحرير الموشى بحبات اللؤلؤ وخيوط الذهب والفضة.

ثوبي البسيط لكوبري أكتوبر والآخر المتأنق اللامع للأماكن الفاخرة.

ليلة من ليالي الكوبري.. تنسجم روحي مع الموقف.. تغافل وقاري وتندفع فرحة.. ترقص مع التصفيق وتحلق مع الزغاريد. عروس جميلة.. أجمل فراشات بساتين الأفراح التي طفت بها طوال السنوات الخمس الماضية.

في عينيها براءة وفي حركاتها حيوية وخفة ورشاقة مغلفة بعفوية محببة. لا تتصنع الخجل.. طبيعية إلى حد الإبهار ورقيقة إلى حد أنني خشيت عليها من نسائم صيف يونيو الناعمة. أحببتها، ربما لأنني أحسست روحها قريبة جدا من روحي. كنت أختلف عنها ذات يوم في أنني لم أوهب ولو نصف جمالها. ثوب زفافها لا يكاد يكون قد تكلف شيئا ومع ذلك فقد زانت ببساطته وأضفت عليه حلاوتها. السيارة الوحيدة المصاحبة لسيارة العروسين كانت رقيقة الحال كأصحابها.

فجأة صار كل من على الكوبري حضورا في ليلة زفاف منى

وعادل - هكذا رددت الأغاني اسميهما -.. ضمني الحشد السعيد.. صرت مشاركة فعلية.. غنيت وصفقت وزغردت.. كم أنت جميل أيها الفرح.. ليت الأيام كلها آحادا وأخمسة. خرجت من ذاكرتي أغنيات قديمة ظننتها منسية. دخلت في حالة تقمص مدهشة.. كنت وكأنني أمي في ليلة حناء أختي الكبرى. لم تكن معي طبلتها الضخمة ولكنني غنيت ما غنت.. يا عروستنا يا لوز مقشر تعالى.. زين الصبايا زين يا جميلة في كحل العين.. رشيدي يا رشيدي.. مالت على إحداهن وهمست بسعادة:

- منورانا يا أمي.

صدمتني الكلمة. أم من أنا؟!.. توقف الغناء في حلقي وحملقت في وجهها المفاجأ من صمتي. هي الأخرى صدمها تعبيري فارتبكت.

حاولت أن أجاملها بتصنع ابتسامة فخرجت باهتة على شفتي. بادلتني المرأة الابتسام متخطية الموقف وانخرطت من جديد في التصفيق.

تلك المجنونة تصفني بأمها.. أم من أنا!.. هي في الثلاثين تقريبا.. ليست بالصغيرة.. وأنا.. أنا.. في الخمس.. في الخمسين من عمري!!.

لم أكتشف أنني قد بلغتها إلا توا.. عانس.. كم تمنت لو تسعد بليلة فرح كهذه.

٦ ـ كلهن أنا

متجهمة في معتقلي الصغير الذي تطل نوافذ غرفتي تعذيبه على الشارع.. ثلاثة معتقلين وأنا. أتنقل بين الغرفتين كمراقبة دؤوبة. كلنا مرهق.. يتمنى الخلاص من تلك المصيبة. فشلت سياستا النفس الطويل وضبط النفس وبقيت سياسة هلك النفس. أصرخ حينا.. أزأر حينا.. أمزق الأوراق وألقيها في وجوههم غالبا ودائما لا أصل إلى نتيجة.

لا أدرى سر تلك البلادة التي أصابتهم وكأن الأمر لا يعنيهم. أحيانا أظن أنهم تبلدوا لأن الأمر أصبح خارج نطاق قدراتهم العقلية.

لا أعرف تحديدا من منا الذي يعذب الآخر!.

أقسم لزوجي أنني سأصاب بأزمة قلبية أو جلطة في المخ.. يقسم لي أنني سأصيبه وأصيبهم بما هو أفظع. أكتشف أنه يضع سدادات قطنية في أذنيه ومع ذلك فالطبقات الجديدة المكتشفة في صوتي تجعله يسمعني بوضوح. يصيبني الجنون عندما أنشغل عنهم ثم أعود لأكتشف أنهم يتبادلون النكات والضحك.

يتكلم حارس العمارة معي بأدب جم وفي أذنيه نفس السدادات القطنية:

- آسف يا مدام.. أصحاب أربعة شقق في العمارة طالبوني

بالمرور على أصحاب الشقق الست الباقية لأطلب منهم الانتهاء من المذاكرة لأولادهم قبل الثانية عشرة موعد نومهم.

صرخت في الرجل:

- أخبرهم أن الباقي على الامتحان ثلاثة أيام بعدها يستطيعون النوم.

تركني الرجل وهو يغمغم في حنق وفي يده كيس قطن قال إنه اشتراه لأحد السكان:

- يبدو أن الجميع متفق على إجابة واحدة.



أغوار

١- للنهـــر بعــض الأسرار .

٢- نظــــرة إلى الـــــداخل.

٣- الخــــــــــلاص.

٤- بريئــــة جـــــدا.

٥- إطـــــار ذهبــــــي.

٦- مجنـــــون بهـــــا.

١- للنهر بعض الأسرار

صباح العيد.. تدعوني الدنيا إلى نظرة فأدعوها إلى ما هو أكثر.. أدعوها إلى ضمة.. ضمة كبيرة بحجم شوقي إلى أيامي البعيدة وأحلامي الصغيرة.

مازال لشرفتنا نفس السحر القديم.. إطلالة على النهر الوديع الفضي وأشجار التوت والجميز وشجيرات الموز.. مازالت نفس الرائحة تستكين بين حوائطها.. رائحة الماء والخضرة.

أرقب بسعادة القارب الصغير المدغدغ لصفحة الماء والصياد الصبور. ألتفت على وقع الأقدام.. وكأني أرى وجه أبي للمرة الأولى.. بشوشا حانيا. يفاجئني بتربيتة حب وكأنما يعتذر عن كل أيام التجهم والصرامة في معاملتي. ينسيني الماضي بأكمله وكأن كل ما كان عليه هو أن يهدى قلبي تلك التربيتة. يخرج من سيالته عشرة جنيهات ورقية ويضحك مداعبا بينما يدسها في يدي:

- جديدة لانج.. كل سنة وأنت طيبة.

ترددت في تقبيله فابتسم وقبلني.. لم يفعل ذلك أبدا من قبل. سألته إن كان سيسمح لى باللعب مع سميرة فتجهم قليلا ثم حاول أن يبتسم:

- سميرة في بيتها تزوجت الشهر الماضي.

أدهشني أن تتزوج فتاة في مثل عمري.. لم تدهشه علامات التعجب التي ظهرت على وجهي.. تركني في الشرفة وخرج وكأنما يجد

صعوبة في إيجاد كلام يقوله لي. عدت إلى متابعة الصياد.. يبسط خيوط شبكته في الهواء لتسقط مخترقة الصفحة الرقراقة للماء.. غبت بعض الوقت عن هذا البيت.. لا أدرى كم من الأمور قد تغير.. لم أشأ أن أفسد بالأفكار السوداء بهجة الصباح الجميل. عدت إلى خزانة ملابسي أبحث عن ثوب لصباح العيد.. لطالما أحببت هذا الأزرق بورداته البيضاء الصغيرة ووسطه المنخفض. وضعت الشرائط الملونة على جانبي شعري.. أشعر بقصر الثوب عن المعتاد.. لا آبه.. تفاجئني النظرة المباغتة في عيني أبى لرؤياي.. يصمت عن كلام لا أعرفه. أنظر إلى صورة أمي ذات الشارة السوداء.. أقنعت نفسي منذ رحيلها بأنها معي.. تربت على قلبي كما كانت تفعل دائما.. تهبني في أحلامي نفس الضمة القديمة بنفس النظرة الحزينة المنكسرة.

أسبب ارتباكا لأبى بإصراري على الخروج لأنفق عيديتي. يصر على أن يصحبني أخي الرافض لاصطحابي. أقفز درجات السلم وكأنما أرتشف رحيق الحياة من زهرة إلى زهرة. يلحق بي أخي بعد جهد ممزق الأنفاس.. أتلف صدره بالتدخين وبوسائل الإتلاف الأخرى. ألقيت السلام على عم سعيد البقال. حياني بحماس ومودة وهو يمازحني أثناء إعطائي ما طلبت:

- نفس الطلب القديم.. بالونات وصواريخ.

أجيبه بضحكة صافية وأمضى حاملة أشيائي.. أشعر به وهو يسأل أخي همسا عن شيء يخصني.. أطرد الهاجس وأمضى.. تطاردني إجابته غير المفهومة على عم سعيد.. ليست عنيفة بالمرة. يتبعني أخي

الذي لم يعتد الكلام الهادئ معي.. من قبل كان كلامه كله صراخا محشوا بالأوامر والنواهي. تشير صغيرة بتعجب إلى وهى تحدث أمها:

– بنت كبيرة وفستانها فستان أطفال!.

أفاجأ بكلامها.. أنظر إلى نفسي.. تصطدم نظرتي الباحثة عما تقول بمظاهر أنوثتي التي باح بها الفستان الضيق.. متى حدث ذلك؟!. أنظر إلى أخي وفي عيني ألف سؤال.. يعطيني انطباعا كريها بإشاحته بوجهه عنى وانهماكه في التدخين. أستدير عائدة بهدوء حزين.. أستعيد صورا وأحداثا.. تشق سمعي صرخات أبى قافزة من أيامي البعيدة.. تغوص أصابعه في لحمى معاقبة.. يغدق بكل شيء على أخي ويتفنن أخي في ابتداع أسباب يعاقبني أبى لها.. تستعطفه أمي:

– ناقص تبيع الجلابية وتسد ديون فساد المحروس.. وتيجي على الغلبانة.. إرحم.

أركض خائفة.. تستبيح أذني ظنون أكره أن تعاود تسلطها على رأسي.. لا أريد أن أخاف من مجرم يميتني رعبا لأنه يريد أن يسلبني حياتي. أظن أنني لن أسمح لمخلوق أن يفعل بي ذلك مجددا. أعود إلى الشرفة ترقبني عينا أبى. أرقب الصياد يلملم الشباك.. يهمس أخي لأبى بأشياء أدرك تماما أنها لم تصدر منى ونحن بالخارج.. أتلهى عن غضبى مما يصل إلى أذني بمتابعة الصياد وهو يقاوم جذب الشباك العنيف له. لا يفلح أبى في إرغام أخي على ألا يتركني في الشرفة بمفردي.. يحادث أبى أحدهم عبر الهاتف.. الحالة سيئة.. لا أصدق كلامك عن أنها ستتحسن عندما تشعر بحبنا لها. كان الصياد يقاوم

بعنف ويجذب.. يطفو على السطح رأس ضخم لسمكة عملاقة.. يرتج القارب بعنف بينما يستميت الصياد كي لا يفلتها. تضرب السمكة الوحشية المجذوبة قهرا من قاع النهر قارب الصياد. يسقط الرجل في الماء مصارعا الغرق. كان أبى يحادث الطبيب.. أصرخ.. يهرول أخي ليجذبني إلى الداخل متهما لي بالجنون وبأنني سأفضحهم.. أشير إلى الرجل الذي يغرق دون جدوى.. أواصل الصراخ بينما يحاول والدي إضاعة المزيد من عمري مستغيثا بالطبيب.. نعم أريدها أن تعود إلى المستشفى.. أبدأ في ضرب أخي بكل ما أوتيت من قوة وقسوة.



٢ ـ نظرة إلى الداخل

انتهيت للتو من نشر الغسيل المبلل في الشرفة. يوم مشحون سرق مني معظم نهاره في استبدال الملابس الشتوية بالصيفية.

هرولت إلى المطبخ لإنهاء غسل الأطباق قبل موعد وصولهم.. بقى للطعام الذي أخرجته من الفرن أن يبرد ليستطيعوا الاستمتاع به. رنين الجرس المتواصل ملأني بهجة.. أعرف أسلوب عادل أكبر ولدي في إخباري بأن أفتح الباب بسرعة لأنه جائع جدا. سألني السؤال اليومي المعتاد بعد إلقاء التحية:

- عندنا أكل إيه؟

أضحك وأنا أقبلهما الواحد تلو الآخر:

- مكرونة في الفرن ولحم محمر وسلاطة والحلو مفاجأة.

يصيح أحمد الأصغر بمرح وشقاوة:

- أرز باللبن.. أرز باللبن.

أضحك من قلبي وأنا أستحثهما على الإسراع باستبدال ملابسهما وغسل أيديهما.

- نعم.. أرز باللبن.. استعدا.

تبعتهما إلى غرفتهما للتأكد من أن كل شيء سيكون في موضعه. أتحايل يوميا لإمرار نصف الساعة فارق الوقت ما بين حضورهما ووصول والدهما.

لا أحب إشعارهما بأنني أجبرهما على الانتظار رغم الجوع.. أتصفح كراساتهما سريعا لمعرفة حجم المذاكرة والواجبات المطلوبة.. أطالبهما بعد ترتيب كل شيء بمعاونتي في تنظيم المائدة.

غالبا ما يتبقى بعض الانتظار بعد كل تلك المحاولات فأتحايل أكثر بفتح التلفاز مفصحة عن قرب موعد وصول والدهما.

هذه المرة كنت منهكة تماما فجلست أمامه معهم ألتقط أنفاسي بعد يومي المرهق.

فاجأتني تلك النجمة.. لم أرها منذ فترة طويلة جدا.. راقبتها بانبهار، عيناها.. شعرها.. بشرتها.. رشاقتها.. قطعة قشدة مغطاة بالعسل الأبيض.

تتدلل.. تتمايل.. تضحك كطفلة لا تحمل للدنيا هما.. حقها.. فهكذا يجب أن تكون النساء.

نهضت متأوهة من آثار آلام عمودي الفقري.. توجهت بشكل لا إرادي إلى المرآة.. حملقت في وجهي المجهد.. هالات السهر السوداء مازالت تحيط بعيني كأثر على ليلتين من العذاب لتخفيض حرارة أحمد.. لم يزل الأثر بعد رغم تمام شفائه. كان شعري مرتبا وملابسي نظيفة.. على الرغم من حرصي الشديد على ذلك إلا أنني أبدو كعجوز في الثامنة والثلاثين.

عمر تلك النجمة قد تجاوز الستين بكل تأكيد. أحسست بالضيق ودار في رأسي سؤال أقلقني بشدة:

- ماذا لو تعرض زوجي لغواية امـرأة مثلهـا؟.. هـو شـاب.. وسيم.. ميسور الحال.. أعدت النظر في وجهي الباهت، مددت يدي تلقائيا إلى أدوات زينتي المهجورة، صبغت شـفتي وكحلـت عينـي، أحسست بأنني أصلح لأن أكون مشروعا لامرأة جميلة. وضعت عطرا وطبقة من الكريم على جلد يدي.

رن جرس الباب فخرجت لأفتح. هتف أحمد بتعجب ومرح:

- شفت ماما يا عادل.. ماما حاطه أحمر!

صفر عادل بشقاوة أعوامه الأربعة عشر مداعبا:

- قمر يا ماما.. قمر.

فتحت الباب ببعض الثقـة.. دخـل زوجـي مكفهـرا.. وضـع أكياس الفاكهة على المائدة وطلب من أحمد كوبا من الماء البارد.

ابتسمت مداعبة:

- ألا تقل شيئا؟!.

نظر إلى وجهي وابتسم:

- هل الغداء جاهز؟.

مططت شفتي مصوبة له نظرة عتاب متصنعة الغضب.

لفني بذراعيه وهمس:

أراك أجمل نساء الأرض حتى وإن لم تتجملي.. أنت حبيبتي يا أم عادل.

كان يدور استعدادا للكمة جديدة. باغته، توقفت وبهدوء شديد خلعت قفازي الملاكمة فتسمر مكانه مندهشا مرخيا قبضته.

ألقيت بقفازي على الأرض، كنت مرتعبة من رد فعله ومع ذلك فقد كان قراري نهائيا. انحنيت بأدب بينما آثار الدماء والتورمات تملأ وجهي وقلبي.

تعاقبت في نظرته الأسئلة الحائرة وإن لم يستطع التخلص من نظرة غضبه الدائم.

بوغت الحضور أيضاً، توقفت الأصابع عن وضع حبات اللب والسوداني في الأفواه المفتوحة. تحولت الهمهمة والحوارات الجانبية إلى صمت ثقيل وترقب ممزوج بالخوف. رفعت الأحبال مغادرة الحلبة، اخترقت في طريقي للخروج الصف الأول والأخير من أسرتينا. كنت سعيدة بحالة الذهول التي يسرت خروجي دون اعتراض.

كان علي أن أتوقف منذ زمن بعيد.. أفر دون أن أعتبر الفرار عارا أو هزيمة أكره أن تلحق بي.

لجنة التحكيم التي سجلت من قبل الكثير من النقاط لصالحه - وتعاطفت معي دون جدوى- تعلن انسحابي وكأنها تهزه لتفيقه من غيبوبة عدم التصديق.

قرار متأخر لكنه إيجابي.. كانت المباراة على وتيرة واحدة منذ البداية، لكماته صارت بمرور الوقت غير مفاجئة وكثيرا ما كنت أراوغ

لأتجنبها. كنت أثور لنفسي أحيانا فأرد بأخرى أكثر عنفا. يوم بكى وتوسل لأقبل به كنت أدرك أن الحب يجلب الحب. توسمته أليفا يشاركني تحليقي. فتحت له قلبي الخالي لكنه بدلا من أن يدخله أحاطه بسياج من حديد.. سياج من جنونه وأوهامه.. غيرة وتسلط وقيود وممنوعات وشك.

صرخ بكل ما يملك من عنترية كاذبة بينما أنا مستمرة في السير.. أفاق أخيرا.. كنت عند باب الخروج ، ألتفت لأراه للمرة الأخيرة، لا أفهم مغزى نظرته تلك، هل كان يتوجع حقا لانسحابي؟! هل كان كل هذا الألم لأنه لن يستطيع توجيه المزيد من اللكمات إلي؟! كل ما أعرفه أنني لمحت في عينيه نذر دموع غزيرة.

داهمني خاطر طردته على الفور.. أحسسته صوت أحد الشياطين الذين يصادقونه.. كان يهمس في أذني:-

- كان يحبك على طريقته.. لقد أفسدت عليه لذة القرب حتى وإن كانت في جولات للملاكمة.

دوت صرخته من جديد جريحا متوسلا:-

- أحبك.

قبضت على ورقة المخالصة التي تسلمتها عند باب الخروج بفرحة مجنونة. كان الهواء منعشا مدهشا بينما يرفرف قلبي حرًّا!!!!.

أقترب وأقترب.. نفس الابتسامة السعيدة المبهورة على وجهي.. أدنو أكثر من كل المرات السابقة.. أغمر بالنور بينما تستمتع قدماي بملمس بساط من زغب السحاب الأبيض.. أتلألأ كماسة من ماسات الأساطير المدهشة التي تخرج من جراب الكنوز للمرة الأولى.. ينخطف قلبي ويسحر عقلي.. الدنيا ملك يميني وكل ما حلمت به أنا بداخله الآن.

أتمنى لو يرفع كل البشر رؤوسهم إلى السماء ليروني.. أنا هنا بإمكاني أن أفيق الليل من نعاسه.. أن أوقظ آمال كل البشر الذين أصابهم اليأس من تحقيق الأحلام.. أنا هنا وسط حلمي تماما.. بين النجوم المتناثرة في السماء. أمد يدي بشوق لملامسة واحدة بينما تحمل اليد الأخرى أوراق اعتماد بقائي بين النجوم.. لوحاتي التي تحتضن وجوهها ألوان البحر والإشراق والأزهار وأشرعة القوارب. أعرف تلك النجمة تحديدا، لم تكن عيني لتخطئ بريقها الأخاذ. لكم احتفظت لها بإعجاب خاص وإن كانت هي لم تعرفني من قبل.. أصرخ.. أبتعد فزعة.. تتناثر لوحاتي ويتبعثر معها أماني.. أشك أنني في المكان الصحيح.. يتواصل صراخ الألم من كفي المحترقة.. يطاردني الصوت المتعجرف.. من لا يرضى بالنار فلا مكان له هنا. أواصل الفرار.. أخشى أن أصطدم بالأخريات.. أعود أدراجي.. أتيقن من أن حلمي مازال بعيدا.. أمني نفسي ببقعة أرض ما تلمع في سمائها نجوم حقيقية. نجوم تكون بردا وسلاما على الحالمين.

٥ - إطـــار ذهبـــي

أكاد أرى الموقف بكل وضوح على الرغم من تواجـدي هنـاك بالروح فقط. كان المشهد منقسما إلى قسمين.. حجرة مغلقـة أرى مـا بداخلها بينما تخفق خارجها قلوب متعلقة بالأمل في انتظار مـشحون بالقلق. وحدي كنت في بيتي غافيا أو ربما يمكن القول بـأنني كنـت هاربا، هكذا يحدث لي في لحظات القلق الشديد.. أتأرجح فوق بساط الحلم السحري، اعتدت في شدائدي أن يكـون الحلـم صـديقا طيبـا بإمكانه المساهمة في تخفيف معاناتي ولـو لـدقائق. أمـر فـوق رؤوس المنتظرين المشتعلين بالقلق مثلي مودعا بنظرة إشفاق.. أخترق البـاب الموصد وأجالس لجنة التحكـيم دون أن يـشعروا بوجـودي. لـست بحاجة إلى استراق السمع لأستوثق من أنني أكثـر المرشـحين أحقيـة بالجائزة.. فقط أحببت أن أسـمع بـأذني مـا يمكـن أن يقولـه الفـرد المعارض لتلك الأحقية إن وجد.

بعد التصفيات الأولية، عشرة أفراد عليهم أن يختاروا واحـدا من ثلاثة لينال جائزة الإطار الـذهبي. لم أرشـح نفـسي فلـست ممـن يبحثون وراء تلك الجوائز لكنني كنـت سـعيدا حقـا عنـدما فعلـوا. أحسست أن وجها جميلا للدنيا يدعوني إلى جلسة صفاء.. التفت أخيرا أحدهم ليكتشف راهبا كان يبدع دون أدنى محاولة للفت الأنظار.

الضجيج بداخل الغرفة غير محتمل.. المناقشة أقصد المـشاجرة شديدة العنف. لا أفهم شيئا.. كل اثنين متحدان ضد الآخرين. إثنان

فقط هما من يؤازراني ليس منهما أخلص أصدقائي!. يعاتبهما بحنق عزوز العدل الكاتب الشهير:-

- سراج الدين! هذا الرجل الجلف الذي لم يكلف نفسه عناء مجاملتي عندما أنجبت ولدي بعد سنوات انتظار طويلة.. لن أقبل بحصوله على الجائزة أبدا.

صدمتني تماما الصفة التي نعتني بها، وكأنها أكتشف الآن فقط أنني قد انعزلت انعزالا فعليا عن الآخرين. لطالما ظننت أنني شجرة وفي نفس الوقت عصفور. أتقلب بين كوني شجرة تمتص الماء المكنوز عبر جذورها الضاربة في العمق وبين كوني عصفورا يتقافز بين غصون الأشجار الأخرى. لم ألتفت من قبل إلى الجدب المحيط ولم أسأل لمن ستكون ثماري.

هذه هي مرة العصفور الأولى التي يتعلق فيها قلبه بشيء آخر غير الأشجار التي أوراقها صفحات كتب.

يطالبهما صديقي ببعض الهدوء ليشرح وجهة نظره فيعطونه الكلمة على مضض:

- أنا صديق سراج الدين لكنني لا أرفض حصوله على الجائزة لأنه جلف كما يقول الأستاذ عزوز.. أنا أرفض تماما أن يقال عنه هذا الكلام في حضوري. سرت همهمة بين الحضور بعضها يقبل وبعضها يرفض، بينما اكتفي الأستاذ عزوز بمط شفتيه ممتعضا والإشاحة بوجهه. أحسست بالفرح لأنه قد رد غيبتي، يمكنني أن أتسامى فوق مشاعري المصدومة بعدم اختياره لي - على الرغم من صعوبة الأمر

على نفسي - وأن أحترم إرادته في اختيار يراه الأفضل. استطرد بصوته الرخيم المقنع:

- أظن أن علينا أن نزن الأمور بمقياس آخر.. أنا مثلا اخترت الأستاذ جمال زعزوع رغم أنه ليس الأفضل لكن أسباب اختياري وجيهة جدا.. الأستاذ جمال مسئول عن اختيار ممثلينا في المؤتمرات بالخارج وكلنا على فيض الكريم، ثم إن الأستاذ جمال سليط اللسان ولن يتورع عن اتهامنا بكل البلايا إذا لم نختره أما الأستاذ سراج فلن يتكلم.

صرخ أحدهم:

- الأستاذ رامي أبو الكرامات رئيس تحرير وجريدته ستخدمنا جميعا.

كرهت غفوتي.. غضبت على بساطي السحري.. عنفت ذلك العصفور الذي أراد أن يرى نظرة إعجاب في أعين الآخرين قبل أن يفقد قدرته على التحليق. أردت أن أقتطف كل ما على شجرتي من ثمار وأخفيها ليستشعروا قسوة جفاف أغصان أمثالي. كنت أنظر بفزع إلى زمان لا أنتمي إليه وإلى مقاييس لا أفهمها. لم يكن اعتصار القلب والعقل لإبداع ما ترتقي به الأجيال ضمن تلك المقاييس. حمدت الله أن أفاقني رنين هاتفي المحمول من كابوسي المرعب، كدت أقتلع بغضب ريش جناحي العصفور الذي كان يرفرف مقاوما، فاجأني صوت صديقي عضو لجنة التحكيم:

- آسف جدا يا سراج اللجنة منحت الجائزة مناصفة بين جمال زعزوع ورامي أبو الكرامات.

المرة تلو المرة وعلى إيقاع مواله يسحب من جـوف البئـر دلـوه ويلقى بمائه في المجرى. يمتلئ الهواء بشجنه الرصين:

- أنا المعشوق أنا العاشق.. لبستيني كما الجني.. ولـو هـايجيبوا ميت ساحر.. أموت لو تطلعي مني.

يرى محمود قادما فتتقافز فوق كهولـة بـشرته الـسمراء فرحـة طفولية. ينتفض مسقطا الدلو من يـده مـستعينا عـلى عرجـه بفـرع لشجرة. يركض ناحيته ببنيته الفارعة وجلبابه المهترئ المربوط بحبل عند الوسط لتقصيره وشعره الأبيض المهوش. ما إن يصل إليه حتـى يتصلب في مكانه ويضرب الأرض بساقه السليمة رافعا يده بالتحيـة العسكرية. لم يثر تصرفه على هذا النحو دهشة محمود.. ما أدهشه حقا هو أن خضرة أرض سعيد قد حوصرت بكل تلك الخراسانات في عام واحد. ترقرق في عيني سعيد دمع الشوق:

- أوحشتني يافندم.. غيبة طويلة على سعيد.

طيب محمود خاطره:

- دوامات الحياة في القاهرة.. والله اشتقت لك.. طمئني عليك.

أجابه سعيد بألم:

- والله يا سيادة الملازم الحرب شغالة.

يبتسم محمود ويصلح لسعيد المعلومة كالعادة:

- أنا خرجت على المعاش لواء يا سعيد.

لا يهتم سعيد ويكمل كلامه منتحبا:

- هناك أخذوها غدرا لكن هنا لا يمكن يافندم.

ربت محمود على كتفه مهدئا:

- يا سعيد قلت لك مائة مرة إن الأرض هناك رجعت والحمد لله.

انفجر سعيد في بكاء حار محموم مرتميا على صدر محمود:

- قسوا على يافندم.. قالوا المسامير في فخذي تمنعني أحارب.

حاول محمود أن يسرى عنه بينما يدس بعض النقود في شق صدر جلبابه.. انتفض سعيد غاضبا دافعا يد محمود وهو يصيح:

- جندي مجند سعيد عبد الله يأكل من عرق جبينه يافندم، ثم ذهل وشرع في إلقاء واحدة من الخطب التي يحفظها.. ودعه محمود فلم

يرد.. مضى متألما. في كل مرة يفعل به سعيد نفس الشيء.. يعيده إلى زمان الأوجاع.. يشعره بمرارة العلقم وسطوة الذل.. رعدة الانهزام وتمنى الموت.. أعاد كل أيام يونيو الحزين إلى رأسه. عادت رائحة الدم إلى أنفه.. استشعر لزوجته وسخونته على جلده وهو يحاول وقف نزف سعيد. كان يجره جرا بعد أن هشمت الطلقات فخذه بينما هو يتوسل بجنون:

- انسحاب لأ يافندم.. نموت وندفن فيها أشرف يافندم.

يومها أقنعه بصعوبة بأن موته لن يحرر الأرض.. أقسم له بأنه سيعود معه لتحريرها لكن بره بقسمه كان مستحيلاً.. لم يفارق أذنيه صوته العميق وهو يردد مواويله الحزينة.. أقسم له أنه مع زملائه قد

ثأروا له لكنه بقى محزونا مأزوما. لم يفلح الأطباء في مداواته وكأنما كان شفاء روحه الوحيد هو أن يستعيدها بنفسه.

أفاق من شروده على صوت صراخ فزع متواصل. إلتفت محمود ناحية الأرض التي كان قد ابتعد عنها بمسافة قصيرة. كان سعيد ممسكا بتلابيب رجل بإحدى يديه وباركا فوقه بينما يلوح بفأسه باليد الأخرى. هرول محمود عائدا مذعورا.. اقترب بحذر:

- اتركه ياسعيد.. ما المشكلة؟.

أجابه سعيد بينما تلمع في عينيه قسوة مخيفة:

- لن أتركه يافندم.. قلت له ألف مرة إن الأرض ليست للبيع. كل يوم يمر علي ويطلب نفس الطلب.. اليوم ظنني غير منتبه له فدخل أرضي وسرق خيارا.. أنا أسرته يافندم .

صرخ الرجل وقد أدرك أنه تحت مجنون حقيقي:

- أسرتني!.. يانهار اسود.

أسكته محمود بإشارة من إصبعه ثم نظر إلى سعيد وحدثه بحسم:

- أتركه.. لن يأخذ الأرض بدون رضاك.

اتسعت حدقتا سعيد وازداد احمرار وجهه وهو يهزالرجل بعنف:

- يرسل من يسرق خضرواتي ليلا لأجوع وأبيع.. لن أتركه.

رمق محمود الرجل بنظرة غاضبة مصدقة لسعيد. ارتبك الرجل:

- لا..لا.. لم يحدث.

رفع سعيد فأسه في الهواء مصوبا نصله الحاد باتجاه عنق الرجل ومطلقا زئيرا مفزعا.

جمد محمود وخفق قلبه بعنف في لحظة صمت رهيبة. انبثق عرق الرجل وصرخ وقد ثبتت نظرته على النصل:

- نعم.. نعم.. سامحني.. لم أقصد.. أنا رجل عندي عيال وأنت رجل طيب.. سامحني .

أنزل سعيد فأسه مطلقا زفرة طويلة ارتخت لها عضلات وجهه فيما يشبه ابتسامة.

تنفس محمود براحة بينما أعاد سعيد الفأس إلى كتفه قابضا على عصاه في وضع استعداد لتحريكه عند الضرورة. استرد محمود قدراته الذهنية التي عطلها الفزع فقال لسعيد بحسم:

- اتركه يا سعيد بالأمر.

ترك سعيد الفأس بهدوء ورفع قبضته عن الرجل وإن ظل باركا فوقه ثم رفع يده بالتحية العسكرية لمحمود.

استطرد محمود مطمئنا سعيد:

- نذهب إلى قسم الشرطة ونأخذ تعهدا عليه حتى لا يتعرض لك.

فاجأه سعيد متهكما:

- أقاربه في القسم.

انفعل محمود موجها كلامه للرجل الملقى على الأرض:

- لو كان الأمر كذلك فأنا معك يا سعيد حتى لو اضطررت إلى عدم العودة إلى القاهرة مرة أخرى.

بدت علامات الارتياح على وجه سعيد وسمح للرجل بالنهوض.

جلس محمود على حافة الحقل بين الرجلين محذرا الرجل:

- قسما بالله إن تحرشت بسعيد فلن يتصدى لك إلا أنا.

حاول الرجل إصلاح وضع قميصه الذي تقطعت بعض أزراره ثم تكلم محاولا التأدب فطغت وقاحته على لهجته:

- شيء يجنن.. الحكومة أخذت منه نصف الأرض لرصف الطريق طولا وعرضا والأرض الباقية على ناصيتين.. المتر من أرضه يساوى الآلاف وهو رجل فقر.. يرفض النعمة ويحاول قتلي؟!. نظر محمود إلى سعيد فوجد في عينيه نظرة ازدراء إلى الرجل المتأنق صاحب العطر النفاذ والذقن الحليق.. التفت محمود إلى الرجل مهددا:

- لن تحاول معه مرة ثانية وأحذرك بأنني لن أعدم معك الحيلة.

أجابه الرجل بمكر:

- بعد كل ما حدث الله الغنى عنها أرض. ثم نهض مغادرا مودعا الأرض بنظرة تفضح جموح رغبته في امتلاكها.

نظر محمود إلى سعيد معاتبا:

- أفزعت الرجل وأفزعتني عليك قبل كل شيء يا سعيد.

مال سعيد على محمود مبتسما في براءة طفل مخفيا فمه بكفه هامساً:

- حتى لا يتجرأ ويعود مرة ثانية يافندم.

فيضان

١ - بــراق النـــور والنـــار.

٢ - فطـــــــــــام.

٣- قليـــل مـــن العـــدل.

٤ - وإن اســـــــــتبيحت.

٥ - ثلاثيـــــة وطـــــن.

٦ - نهـــــر آخـــــــر.



عرسها الليلة والقمر محاق والحزن يعتصر الحبيب. داعب مخيلتها حلم صغير جميل بأن تبدأ الرحلة من هناك من عند حائط البراق. براقها الموعود هناك في ركن مظلم غير بعيد.. براق من حديد يجعل من حلمها الصغير حلما مستحيلا لأن حركته إلى هناك قد تفضح سرها الكبير. لملمت في صدرها عطور المكان.. طبعت في قلبها صورة من كل جنباته. عن يمينها أطلال مأواها معلقة بين السماء والأرض. الأمر أكبر من واجهة منهارة لغرف وردهات.. تشعر بأنهم قد جردوها قسرا من ملابسها. خطوات كل من يسيرون حيث تضع قدميها تنتهك قدسية الدماء. كل الصور حاضرة.. تحت الأنقاض المنهدمة عبق الشهداء.. فوق الجدران الصامدة سطرت أسماء من ذابوا عشقا في الوطن حتى يحفظها الأبناء، فوق الأسماء المحفورة رشق لطلقات وبقايا دماء. تلتقي عيناها بعينيه.. حلمها القديم.. تسلل نبضها إلى عينيها.. تعانقت نظرتاهما في عناق ليس بعده عناق. عيناها مثل عينيه خالية تماما من قطرات التفاعل الفضية وكأنما سد القهر منافذ الدمع. أدارت وجهها عنه.. حافة الشرفة المتدلية بأعمدتها الخرسانية تظهر مقعدها الوثير.. لطالما دللها والدها بأرجحتها فوق ذلك المقعد.

بعض الرفاق ينظرون إليها مشجعين.. لا تخطئ القلق في عيونهم.. تبثهم الاطمئنان بنظرة واثقة.

تعرف أن عينيه عليها.. لا تريد أن تضعف.

همسه الأخير يطن في أذنيها:

- كان بإمكانك إنجاب عشرة أبناء يفعل كل منهم ما تفعلينه بمفردك الآن.

صوت قناعاتها لم يعجبه:

- من قال لك بأنهم لن يهدموا البيت على رؤوسنا في ليلة زفافنا؟

ما جدوى أن ننجب أطفالا ليموتوا في المهد غدرا؟.. حتى إذا حدثت المعجزة وكبروا فلا أستطيع أن أموت مع كل واحد منهم مرة.

كان تبدلها فجائيا.. صار إحساسها بالدنيا مختلفا.. لم يخرج حبه منها لكن حبا أكبر قد طغى عليه.. لحظة احتضار أمها بعد أبيها

عندما فجروا البيت بهما كانت سببا في ذلك بالتأكيد.. تلك الومضة التي لمحتها في عيني أمها أجهزت على ترددها. كانت كالأمر بالثأر.. كترياق ضد الضعف أفشل مفاوضة الحب الكامن في أعماقها.

اختلست نظرة إليه، كان مطرقا يتمتم بآيات من كتاب الله. تعلم أن وراء صموده هذا طوفانا من المشاعر.

همهمة بين الرفاق.. تهادت سيارتها مدفوعة بالأيدي حرصا على عدم إصدار المحرك لضجيج قد يلفت الأنظار. أنظار الجميع معلقة بيدها وهي تدير مفتاح التشغيل تالية الشهادة. حبست الأنفاس وامتلأت القلوب بالخوف والأمل.. سكون موحش وقلق عاصر. كلماتها الأخيرة تزيد من آلامه:

- لن أقول انسني.. طلبي الوحيد هو أن تتـزوج.. أرجـوك.. فليكن العشرة أولادك أنت.

دقائق طويلة طويلة وشق الدوى قلبه.. ملأت صورتها صفحة الدموع التي ترقرقت في عينيه .. ملائكية الوجه شفافة كالنهار الذي سيولد بعد قليل.. انسحب الجميع بأسرع ما أمكنهم. استشعر أحدهم قسوة اللحظة على حبيب فارق حبيبه توا.. ربـت عـلى كتفـه محـاولا مواساته.. قدماه لا تحملانه.. ضوء اللهب البعيد يبوح للدنيا بسرها.. الشظايا المتطايرة تعلنه أن الجسد الجميل لصاحبة القلب الـبريء قـد ذاب إلى الأبد.. ألسنة النار التي لها نفس لون حمرة الخجل في وجنتيها تقسم له أنها لم تضع سدى.. تحرك الصديق ليسطر اسمها فوق الجدار في أول صف جديد من الأسماء. خر باكيا فـوق الـتراب فـشيء مـن الدموع لا ينتهك قدسية الدماء المراقة عليه.



تخفي عنى تحت براءة ملامحه.. طالعت وجه ولدى ليلا ونهارا.. أحببته.. خفت عليه، ربما حرص على ألا أفسد له كل شيء وربما خاف على من أن أموت ألف مرة قبل أن ينفذ ما انتوى.

يجهدني أخي بتكرار السؤال:

- عندي سبعة أولاد وعندك ولد وحيد.. كنت أنا أولى منك.. كيف لم تشعري بشيء؟.. كيف؟!.

تجيبه حروفي المبتورة وكأنما أحبو في دنيا الكلام

- ترفق بقلبي يا أخي.. لم أفهم شيئا.

تلتقط أذني بعض ما يفور من قلبه إلى لسانه.. تنشغل عيني.. تدور فوق الجدران.. صور صغيري تحاصر مشاعري.. ضرب كفا بكف غير مصدق.. يحبه مثلى فقد رباه معي صغيرا .

نهض وتلكأ يستكشف ببصره زاوية يهرب إليها بدموعه ثم تركني لينزوي فيها.

الصور على الحائط تحكى الحكاية.. طفلي يحبو.. حلمي الجميل الذي نما في جوفي وانطلق من رحمي تحرسه روحي وعيني.

أول أيام مدرسته.. ما تلك التي على وجهه بالبسمة بل أجمل فرحة.. فرحة عمري.. طيري الصغير قد نبت له بعض الريش.. سيطير خارج جدراني، سيكتب ويقرأ.. سيغنى ويلعب ويرسم.. هذا الصغير عوضي وسندي حال ضعفي.

في العاشرة.. يبسط صلصاله ويجسم أوطانه.. يحفر أماكن الأنهار ويسألني:

- أيهما أحلى.. النيل أم الفرات؟.

أضحك وأداعب خصلات شعره:

- كلاهما حلو.. أنا ذقت الاثنين.. الاثنان من الجنة.

يبتسم ويكمل الحفر.. الليطاني والأردن والأزرق و.. و..

صورته في ختام أيام مدرسته.. شارب خفيف وذقن حليق وبشائر أيام حلوة.. يشعر بآلامي وآلام الجميع.. يشاركنا الشعور بالخطر والصبر على القهر.. تشغله دنيانا الخربة.. أشعر به يرفض ويثور لكنه أبدا لا يبوح .. يخرج ويعود ويظل بريئا كفجر وليد.. كان كأبيه.

همس في أذني متوسلاً:

- لا تغضبي فلا أريد أن أكون طبيبا

تلون وجهي بالغضب وأجبته حاسمة:

-لا أقبل إلا أن تكون طبيبا.

سربت أنفاسه عطر براءته إلى روحي وهو يطبع على جبيني قبلة ويطوقني بذراعيه متدللاً:

- دعيني أفعل ما أحب يا حبيبتي.

ألان قلبي كعادته ومع ذلك فقد أمليت عليه شرطي:

- انجح بأعلى الدرجات ثم افعل ما يحلو لك.

وعدني وأنجز وعده. لم يصرخ فرحا ويرتمي بين ذراعي.. لم

يفاخر بدرجاته.. كان مهموما يتألم، جثمت على فرحته أشلاء بيوت شارعنا.. عذبته أحداق جمدت عن أن تتسع دهشة أو أن تضيق حزنا. فقط ضمني وهمس بصوت رصين عميق وكأنما قد كبر مائة عام:

- وعد الحر دين عليه يا أمي .

لم أفهم أنه كان يذكرني بوعدي له بأن أتركه يفعل ما يريد. منعت نفسي مرارا عن سؤاله.. لماذا لا يشارك في المقاومة الفعلية ضد ما يفعل بنا؟. أليس مثل كل الشباب من حولنا.. ألسنا جميعا شركاء في كسرة القلب وضيق الرزق وتحت وطأة نفس القيد؟.. عطلت عقلي وكأنني كنت أخاف الفهم. سألته:

- إلى أين تريد التقدم بأوراقك؟.

استمهلني وفي نظرته شرود:

- ما زال أمامي بعض الوقت لأفكر.

أخافتني ساعات غيابه الطويلة عن البيت.. لا يتحمل قلبي فكرة أنه قد يصاب بمكروه في طرق لا عدل لعدو فيها ولا استسلام لأصحاب الحق. لعبت برأسي الشياطين.. خاصمته.. أيعبث في طريق الضياع؟.. أتراه يواعد فتاة تشغله عن داره وعن أمه؟. إن كانت الثانية فلماذا لم يخبرني؟.. لا.. أظن الأمر أكبر من ذلك.. أشفقت على غرس عمري وتفجرت شكوكي غضبا:

- يابن الشهيد.. هل ترضى أن يلعنك قلبي؟.. قف لا تهرب مني.. استدر لتواجهني.. ماذا تخفي عني؟.. تبدلت أحوالك.. اسمع.. إياك ورفاق السوء.

بكى وكأنما أحرقته بسوء ظني.. فاجأني:

- هل تتحملين فراقي يا أمي؟.

تعثر نطقي للحظة وانقبض قلبي.. حاولت رغم غيمة القلق أن أتمسك بمنطق الحكمة:

- فطمتك منذ زمن بعيد.. أنت رجل، وقلوب الأمهات تتحمل فراق الأبناء إذا كان لأجل مصلحتهم.. أقبل فراق الرجولة وأرفض فراق الضياع.

مازحني بابتسامته المدهشة ومسحة الحزن الغامضة:

- ابنك رجل.. ثقي بي.

لم يفسر لي شيئا لكنني كنت أريد أن أثق به. تراجعت عن ثورتي.. حاولت أن أكون الأم التي كنتها دائما.. أشجعه ليكون رجلا بمعنى الكلمة:

- عشت عمري كله أفخر بأنني زوجة بطل فلا تخذلني.. لا أريد لك أن تقل في الشرف عنه.

لا أدرى كيف لمعت عيناه على هذا النحو.. أضاء وجهه وكأنما قد حصل منى على كل ما يريد. ضمني في سعادة فشممت رائحة أبيه.. قبلني قبلة أعرفها.. ذقت من قبل مرارتها وانطلق لم ينظر خلفه.

٣ ـ قليل من العدل

زغاريد قليلة تغدق بفرح مهموم على قلوب تتمنى بعضه. تكحلها الخالة فيسيل الكحل.. تستحلفها بكل عزيز أن تكف عن البكاء.. تجاهد العروس الصغيرة لخنق الدموع.. تمسح الخالة سواد الكحل من على حمرة الخد الربانية المرة تلو المرة.

تهمس للعروس مداعبة بمرح مدعى:

– عرس حبيب لحبيب ونبكى؟!.

دون كلمة واحدة تعاتب الخالة بنظرة من عينيها الجميلتين اللتين أذبلهما البكاء.

تزفر الخالة زفرة طويلة ممزوجة بعميق الألم ثم تعاود محاولة إقناعها:

– ليلة فرح وسط الهم.. حرام نضيعها.

لا تجد منها إجابة.. تبدأ في محاولة تزيينها من جديد فتفشل. تستسلم يائسة:

– عروس بلا زينة.. الأمر لله.

تصحبها بعض النسوة إلى حيث تجتمع الباقيات. يحاولن تناسي ما تحاصرهن به الحياة.. يتعطشن لفرحة مسروقة.. يرقصن فوق الأحزان.. يغنين رغم كل مشاعر اللامان.. يصفقن حتى يعلو التصفيق على أصوات المروحيات.. حفل بسيط مسكون بالشجن وإن سد أذنيه لساعة عن الطلقات وأغمض عينيه عن نزف الجراح.

عندما قبض على كفها الرقيق بحنو في الصباح التالي للعرس المشحون بالحب همست معاتبة:

- لم تبح لي أبدا بسر إصرارك على إتمام الزفاف تحت هذه الظروف.. كنت أتمنى لو انتظرنا قليلا فقلوبنا جميعا جريحة.

ضمها ضمة كم تمناها منذ طفولتها البريئة:

- كنت أريد أن يضمني بيت واحد بمن أحببت.. كنت أريد فرصتي في أن يكون لي طفل إذا ما كان الأجل قريبا.

أرعبها.. استحلفته أن يصدقها إن كان قد انتوى القيام بعملية ما.

نظر في عينيها نظرة متوجعة ثم همس مختنقا:

- لم أخطط لشيء.. لكنه حال الوطن يا حبيبتي.. كل حي فيه ينتظر أن يكون شهيداً.

لساعة وربما أقل.. وبينما أنا ممددة فوق التراب.. بدا كـل شيء ساكنا حتى الهواء.. كنا جميعا نلتقط أنفاسنا. فتحت عينـي واهنـة.. كنت مهوشة الشعر خائرة القوى ممزقة الثياب. أدرت بصري في المكان فاختلطت على وجنتي دموع الحسرة بالدماء.

كنت قد أيقنت من عدم جدوى استغاثاتي بعـد أن بـح صـوتي طلبا لها. أنا الآن محاطة بأحذية ثقيلة ومصوب إلى رأسي كـل أنـواع السلاح. كان الشتاء قاتما وأسراب غربان تعاكس الضوء الشحيح في السماء. أصـواتهم نهمـة وضـحكاتهم منتـصرة ناضـحة بالرغبـة والاشتهاء.. وجوههم مليئـة بـسواد ضـمائرهم.. عيـونهم كـأشرار حكايات جدتي معجون فيها الشر بالدهاء. أغمضت عيني لا أصدق أنني بعد كل تلك المقاومة سأكون وليمتهم.

أحاول استعادة ما حدث.. تتوارد إلى ذهنـي الـصور.. كنـت أمشط شعري ذات صباح.. أنظر في المرآة بـسعادة.. تلمـع في ضـوء الشمس خيوط الذهب الموشى بها ثوبي.. أتعطر وأتجمل وقلبي راض يسع الدنيا كلها.. ولم لا وقد توقف الزمن عندي رغم أن رحمـي قـد حمل كل هؤلاء الأبناء. كنت مازلت طاغية الجمال فاحشة الثراء. خطأ واحد أذبلني قليلا.. خطأ تقع فيه بعض النساء.. صدقت كلام العشق الذي خدر عقلي إلى حين. أفقت من أوهامه لأجد نفـسي بـين بـراثن طاغية.. كانت نظرته تثير الرعب في قلب بعض ولدي.. كانت قبضته

تؤلمني. لا أحد سواي كان بإمكانه تصحيح الخطأ لكن أحدا منهم لم يطق الانتظار.. كلهم كان يريدني.. كلهم لفق أكاذيب إنقاذي منه دون سؤالي. الكَذَبَة أصحاب الأحذية الثقيلة يتلذذون باقتسام تمر حديقتي. أسمع أصوات احتكاكات الأحجار وقطع معدنية بسطح ما. يشدد أحدهم على الآخر بصوت أجش ولكنة غريبة ألا يكسر التمثال. أفقت إفاقة كاملة.. لمحت سيارة ضخمة يحملون عليها أشيائي.. سرقوا مقتنياتي التي ورثتها عن أجداد أجدادي.

أشم رائحة الدماء في المكان. أسمع أنات عشب محترق ونحيب نسائم تختنق. أحسست أني بمفردي والخوف مجرم متمرس يثير الرعدة في جسدي.. يشعرني بالوحشة في بيتي. أكاد أجن، طاغية واحد تسبب في إحضار ألف ألف مصاص دماء. حاولت أن أنهض.. دفعوني لأرقد من جديد.. ازددت انقباضا على أولادي.. أذكر الآن أنهم كانوا يتساقطون وهم يحاولون إنقاذي لا أحتمل هذا العذاب.. لو كانوا قتلوهم جميعا فأي حياة تلك التي أستطيعها بعد الآن؟.يمدون أصابعهم ليعبثوا بجسدي.. لا أطيق.. أصرخ لا تلمسوني.. أنتفض لأصوات الزئير الغاضب لأولادي.. تنشق الظلمة عن لهب.. تركض الأحذية الثقيلة مذعورة في كل اتجاه.. أفرح.. ألملم مزق ثوبي.. أمسح بحركة لا إرادية مزيج الدم والدموع عن وجهي.. تنعق الغربان.. تمطر غيمات الشتاء.. أشعر بعافية الأمل تدفع ببعض القوة إلى جسدي.. أنهض متحاملة على نفسي.. أحس لزوجة ما ظننته ماء.. أكتشف أنها تمطر لأجلي ودون توقف.. قطرات دماء.

١ـ قبورها أرحام

منشار القهر مزدوج الحافة.. يهتك القلب ويجتث جذوع صغيراتي.

تتساقط حبات حياتي الخضراء.. قطرات من حب الزيتون المحتضر.

تئن أوراق الأشجار المنسحقة تحت الأحذية الثقيلة.. أقاوم.. أقيد لأنني أصرخ موتاي.. يمرغ الخد بالتراب.. تلامس جلدي حبة زيتون.. أعتذر لها بعجزي وأبللها بدموعي.. تقسم أنها تعلم أن ما بيدي حيلة.. تشتد على ظهري الضربات.. أقاوم.. تتدافع حبات الزيتون.. تصنع حفرا صغيرة في تراب الأرض الخصبة.. أستكين للكثرة التي تغلب الشجاعة وقد جرح الجسد من شدة مقاومتي.

تختفي الحبات عن وجه الأرض.. تغوص فيما ظننته قبورا صغيرة.. أتمسك بواحدة وفي عيني سؤال:

- إلى أين؟.

تقسم على أن أتركها تذوب في حفرة الحياة التي صنعتها.

تمتزج علامات الدهشة بقسماتي المقهورة.. تضحك وهى تنفلت من بين أصابعي المكسوة بدمائي:

- لا تحزن.. بداخل الأرض سيموت لحمنا الخفيف وتنشق بذورنا عن ألف ألف شجرة زيتون.

٢ـ مجرد وقت

أتفاعل وأتفاعل حتى لا أقوى على المزيد.. أسأل الألم هدنة أريح القلب فيها. أدير المؤشر عن قناة الأخبار علني أهدأ.. دقائق وأعود إلى نفس القناة بنفس الأحاسيس.. كلي أمل في ان تبث القناة أن نصرا ما قد حدث.. مقاومة أفلحت أو انتقاماً ربانياً يطفئ بعضاً من غلي الثائر في صدري.

تحملني عيني ومشاعري إلى قلب ما يحدث.

تتقطع أنفاسي من الركض هربا من الطلقات الحاصدة.

احمل صغيري المحتضر وأدعو بكل حواسي على من اغتال أملي.. أتزلزل مع البيوت التي تتهدم.. أتشرد مملوءة بالحسرة والثورة.. أحرق الأعلام أقذف الأحجار وأهلل لحزام ناسف بدد حلمهم بالأمان. أنزف من عيني كل مشاعر الألم ذائبة في دمعي. يعيدني صغيري إلى واقعي.. أسترد بعضا من هدوئي بوقوع بصري على وجهه الوديع الجميل.. تدهشني انتفاضة جسده وبرودة كفه المرتعشة.. خائف.. تمتلئ نبراته بالفزع:

– هل سيأتون إلينا يا أمي؟. هل سيذبحوننا ويأخذون بيتنا؟.

أفيق أكثر.. أكتشف معايشته للأمر وإدراكه للخطر.. أضمه إلى صدري وأتمنى لو أستطيع طمأنة براءته وإخماد مخاوفه:

– لا يا حبيبي نحن في أمان.. الحرب بعيدة جدا عن هنا.

تربكني دموعه الحارة.. يجهز على محاولتي الساذجة لإقناعه.. يعيد على كل ما كنت أهمس به لنفسي أثناء المشاهدة:

- أنت قلت أنهم مجرمون ولن يكتفوا.. أنت قلت.. سيأتون إلينا. لا أصدق أنه خائف على هذا النحو وهو الذي لم يتعد الخامسة. تماسكت:

- نحن أقوياء جدا. جيشنا قوى ولا نخاف منهم، لو جاءوا سنقتلهم. دخل إلى حضني محتميا به وبقايا الرعدة في جسده:

- أخاف أن يقتلوكم.. أخاف أن يقطعوا رجلي أو يدي. مسحت دموعي.. أغلقت التلفاز عن كل هذا الدم والخراب.. رفعته إلى ركبتي وقبلته وأنا ألف ذراعي حوله مهدهدة.. ادعيت الاطمئنان بابتسامة ممسوخة بينها أحاول إخفاءه بين ضلوعي..

كنت في أعماقي أرتجف بشدة.. أتمنى لو أصدق أنهم لن يأتوا إلينا.



٣ـ شيء ما بالإمكان

ثائر عاجز.. محكوم على بأقصى قهر. كل مشكلتي هي جسدي.. قدري الذي يشدني خلف الحدود.

تمنيت لو أمكن لي مغادرة ذلك الجسد وتركه في مكان ما ولو إلى حين.

في طريقي إلى الحدود للمرة المائة.. استوقفوني كالعادة:

- ما سبب رغبتك في الدخول؟

صرخت محموما:

- ألا تريدون أن تدخلوا مثلى.. ألا يؤرق الغضب نومكم؟ ألا تحسون؟!.

طأطأوا الرؤوس.. همس أحدهم متفاعلا وهو يعيد إلى بطاقة هويتي:

- ارجع يا ولدى.. مرورك مرفوض ونحن مأمورون.

جلست إلى جوار السلك الشائك الفاصل.. أقسمت بألا أغادر إلا إذا سمحوا لي بالدخول. تكاثرت على الأيدي والأرجل.. وضعت في حافلة عائدة مرغما.. مزقت الهوية حانقا.. وضعت على صدري لافتة مكتوبا عليها:

- نفس اللغة.. نفس المقدسات.. نفس القهر.. وجنسية أخرى!

عدت إلى الطريق المزدحم واللافتات الثائرة.. أصرخ بملء أحبالى الصوتية هواء: أريد أن أقاتل.

يبتسم الشيخ الذي كان يصلي إلى جواري:

- اصرخ.. اصرخ لعله لا يكون في الهواء.

يزداد زئيري.. ألهب من حولي.. ترصدنا بنادق.. تحجزنا موانع.. تنطلق سحابات الدخان الأبيض.. تنحشر الصرخات في الحلوق المختنقة.. يلتف نحوي مدفع دبابة.. لا أعرف تحديدا إن كانت تسير في العراق أو فلسطين أو شبعا أو الجولان.

أشعر بصدمة قوية في كتفي.. أضع كفي على مكان تدفق السائل اللزج الساخن.. أكتشف أن بإمكاني التحليق.. أرتفع فوق رؤوس الآخرين.. أنظر حولي فأجد آخرين يحلقون.. تتهاوى الأجساد..

تلتحم آهات المقهورين بوعيد الثائرين.. تمتد الأيدي تحمل أجسادا تركناها.. يتوحد هدير الأصوات إلى تكبير.. أكتشف أن بإمكاني الآن أن أعبر الحدود.

٦ـ نهر آخر

أنظر إليه وهو ينتظر عن بعد.. يخفق قلبي مرتبكا.. ترتعش فيه كل تلك المشاعر الجميلة التي ظننتها طمرت. لم أكن أظن أن أحلام ابنة السابعة عشرة قادرة على شق ركام عشرين سنة.. أقترب خطوة بتردد.. لا أجرؤ على التقدم بخطوة ثانية. يرقب النهر شاردا.. ينتظر مجيئي بالقرار.. يقهرني ضعفي.. أكتشف أن مواجهته الحاسمة أصعب من كل تصوراتي.

ماذا لو نظر في عيني.. لا أريد أن أتخاذل لا أريد له أن يقرأ كل هذا الألم على وجهي. أخرج ورقة وقلما وأدعو النادل بإشارة من يدي. تنساب دمعة فوق تجاعيدي الوليدة.. أجبر يدي المعاندة على كتابة السطور بينما لا يصدق قلبي ما أفعل:

– تقول إنني كالماء بين يديك.. أتسلل من بين أصابعك دوما.. كل ما أتركه لك هو جلد رطب في قيظ أيامك.. تريدني داخل حياتك وليس خارجها.. لا تحاول مجددا.. لا تجهد نفسك بتكرار المحاولة المستحيلة.. أنا امرأة لا تصلح لأن تتشربها حياتك.

أعرف قدري.. قدري هو تلك النبتات الصغيرة التي فقدت عائلها.. أرويها.. تنمو.. تصبح أشجارا.. أصبح رحيقا للحياة غير مرئي لكنني أسرى في كل كيانها.. قدر محتوم ألا أصير امرأة أحد.. فقط أنا أم.



سحر

١ - الجهنمية لكل الشهور.

٢ - رغم أنف العقل.

٣ - أكثر من مجرد كلام.

٤ - إيقاظ أدهم.

٥ - كل الأسرار.

١ – الجهنمية لكل الشهور

قلقة، فتحت النافذة على الحديقة الصغيرة التي يطل عليها البيت الجميل الذي ورثته عن أبي. لفحتني سخونة محملة بروائح الزهور.

كان الربيع يعلن عن نفسه بينما الشتاء قد لملم برودته وأخذت الأرض تتجفف من أوحال أمطاره.

خفت.. أعلم أن هذا العطر السحري للكون يتسرب من أنفاسي إلى قلبي. أستشعر دعوته للحب وقد تدللت الأرض بعد أن أبدلت تجاعيد الشتاء بنضارة خضراء تتناغم فيها ألوان الورود.

لطالما قلت له أنني أكون في أضعف حالاتي في هذا الطقس المجنون بزوابعه السخي في خضاره الملهم بروائحه. كان يسميني زهرته الربيعية.

أظنه قد حدد موعد اللقاء وقد أدرك ما سأكون عليه اليوم.

طوال رحلة عمله التي أستغرقت الشتاء بأكمله وأنا أحاول اتخاذ قرارا مصيري في هذه العلاقة الغريبة.

خمس سنوات من الكر والفر. إعترفت له قبل سفره بأن زواجنا لابد أن ينتهي وبشكل فوري. إبتسم وهو يرتب حقيبته مستخفاً بكل ما قلت مدعياً أنها نوبة كآبة شتوية. أقسمت له أنني في لحظة صدق شديدة معه ومع نفسي وبأنني قد فقدت طاقة الإستمرار فادعى بكل هدوء أن غيابه سيعيد شحن تلك الطاقة!.

بعد عودته من السفر منذ أسبوعين رفضت بحسم عودته إلى

البيت فأنتظر في بيت عزوبيته.

أنهي هذا الصباح قبل الأوان وبشكل مفاجيء المهلة التي حددها بنفسه لأراجع نفسي.

طوال السنوات الماضية وأنا أحاول.. يكذب ويقسم ولا أصدق ومع ذلك أمرر الأمر، يغضب ويخاصم وهو المخطيء وأبدأ أنا بالمصالحة، أفهم كثيراً وأتغابى أكثر، أمارس بإرادتي دور الأضعف عله يرضى فيتمادى في فرض السطوة، أتعب فأتمرد وأنفر فيتحول إلى طفل يبكي ويتوسل، أرضى فينصلح قليلاً ثم يعاود اللعبة من بدايتها!.

أتأمل على السور المحيط بالبيت زهرة الجهنمية الحمراء الجميلة عديمة الرائحة قاسية الأوراق. زهرة تحتمل كل أنواع الطقس بينما تتراقص الزهور الموسمية الرقيقة من القرنفل والبنفسج وحنك السبع وأنواع أخرى بجمال وضعف في أحواض صغيرة بالداخل.

يبتسم وهو يرفع رأسه أثناء عبوره إلى الداخل ملوحاً بباقة من الياسمين الذي أعشقه. لا ينتبه للزهرات الضعيفة التي على الأرض أثناء مروره.

أفتح له الباب بينما يمتليء المكان برائحة هياج التراب في الهواء الخماسيني.

بابتسامة عريضة يمد يده بالباقة التي تساقط معظمها باتجاه وجهي وكأنه يريد مداعبتي. أتساءل أين ذهب ذلك السحر؟!.

أدفع يده ببرودة وحسم وأرقبه بنظرة جهنمية.

٢ ـ رغم أنف العقل

فكرت في الأمر جيدا.. أحسسته بديعا رغم غرابته.. لم أكن حانقا ولا ثائرا على أقاربي الأعزاء.. فقط كنت أحمي نفسي من الموت كمدا إذا ما استمر الوضع على ما هو عليه. كان على أن أذهب إلى طبيب الأسنان أولا لأنتهي من تلك الأوجاع قبل أن أشرع في وضع اللمسات النهائية لخطتي. تمنيت لو اقتلع لي ذلك المثابر أسناني كاملة واستبدل بها أخرى صناعية. تعبت.. تعبت من رحلاتي المتكررة المملة إليه.. تعبت من الألم الذي لا تطيب لي بسببه أي متعة من متع الدنيا. في طريقي إلى الطبيب تشكلت في رأسي صورة كاملة لما سأفعل.. سأسافر.. لا يهم إلى أين لكنني سأبدأ حياة جديدة.. نقودي ستفي بمتطلباتي بالإضافة إلى أن صحتي جيدة.. سأكون صداقات أختارها بإرادتي الكاملة وسأغلق الباب في وجهها متى أردت. سأنتهي من هؤلاء الأقارب المجانين تماما. يسحقونني بمطالبهم.. يدمرون أعصابي ويهدرون وقتي بتناحرهم.. يجعلونني الأكبر والحكم في حل نزاعاتهم ثم يسبونني علنا في كل مجلس. قراري نهائي.. سأنساهم تماما ولن يفرض على مخلوق بعد الآن. شيء واحد يؤرقني فهم في النهاية من لحمي ودمائي ولا أريد لهم أن يتعذبوا بسببي. أعلم أن أنفسهم لن تهدأ أبدا إذا ما ظنوا أنني حي مفقود. لن يطاوعني قلبي في تعذيبهم على هذا النحو. ينطبق عليهم المثل القائل: لا أنا أحبك ولا أنا أقدر على بعدك.

فاجأت الطبيب:

- لا أريد مواصلة العلاج.. أريد اقتلاعها بالكامل.

أفزعت الفكرة الرجل :

- أفضل بدائل صناعية لن تكافئ أسنانك الطبيعية.. اصبر معي وستكون على ما يرام .

لم يعجبني كلامه.. قررت أن أذهب إلى آخر أكثر خبرة في المكان الذي سأذهب إليه ليحقق لي مطلبي.

في شرفتي المطلة على النيل وضعت تصوري النهائي للخطة.. كتبت الصيغة الكاملة التي ستنشر في الجرائد:

(توفي إلى رحمة الله أثناء رحلة قصيرة بالخارج.. أصدقاؤه المصاحبون ينعونه إلى أهله وأحبائه بالقاهرة - العزاء غدا بمسجد عمر مكرم.) وضعت اسمي وأسماء الأقارب وصورة حديثة.. دفعت تكاليف كل شيء.. تملكتني سعادة مجنونة وأنا ألملم أشيائي لأغادر إلى فندق لا يعرف أحد باختفائي فيه. لولا آلام أسناني لاحتفلت بالتهام الحلوى والمثلجات. ملأتني رغبة أخيرة وحيدة قبل أن ألحق بطائرتي.. تمنيت لو أرى سرادق عزائي.. موتتي الأولى التي اخترتها طواعية.. أردت أن أهب لقلبي المزيد من سعادة الفكاك المظفر من رباطهم الذي لو استمر فسيكون السبب الرئيسي في إصابتي إما بجلطة مخية أو بأزمة قلبية مميتة.. فلتكن نظرة وداع أخيرة أصدق بها على صواب حكمي عليهم.

اشتريت نظارة شمسية ضخمة وجلبابا لا يشبه ملابسي إطلاقا

ووقفت عن بعد أرقب الحضور. أدهشتني أسراب المعزين.. صفرة الوجوه المعتصرة بالحزن.. أدهشتني القلوب المكسورة التي أوهنت قدرة الأقدام على المضي إلى داخل السرادق. كدت أبكيهم مع بكائهم لي.. كلهم كان يحترق.. كلهم كان صادق الحب مخلص المشاعر. كان شيء ما في قلبي ينتفض ثائرا علي ويذبحني بالألم لأنني ودون رحمة قد آلمت من حملوا لي كل تلك المشاعر.

اعتصرت تذكرة السفر مهزوما.. كنت أنا أيضا أحبهم بجنون.



لا أصدق همسك المواسى:

- تفعلين حبيتي من دون أن تشعرين.

أحبك عندما تكذب علي ، تشاطرني هما لا يمكن أن يتشاطره معي إلا محبا معطاء يتنازل عن الفهم لأجل طمأنة جزع الحبيب.

تدعى أن هذا الحبيس الذي ينضغط تحت ضلوعي والذي يندفع بعضه إلى أوراقي قد يحمل الحلم القادر على صنع المستحيل إلى الآخرين!.

تشفق على منى وأنت حبيبي تعلم أني بلا حيلة أمام كل تلك التفاعلات. أعلم أنني لم أعد أثير دهشتك عندما أترقرق في سكينة كصفحة النهر في ظهيرة ربيعية عاكسة دفء الشمس وبريقها، أو ينطفئ في لحظات إحباطي كل ما لدي من جمال وشموخ تماما كشجرة ممدة صارت ملهى للصغار ومتكأ للكبار.

تعلم أيضا أنني لا أستطيع شيئا لوقف اندلاع البركان أو اندفاع الشلال ولا لجرف السيل لصخور الجبال. أخجل من نفسي وأنا أعتذر لك - بعد كل نوبة - بكل ما أحمله لك من حب بينما تصر بمنتهى التعاطف على أن ما أعانيه من تقلبات هو قدر لا ذنب لي فيه.

حقيقة أنا التي تشفق عليك مني لكنني وإن كنت عاجزة أمام نفسي فأنا أيضا عاجزة أمام السؤال:-

- أكـل هـذا الـذي بـداخلي ولا أسـتطيع أن أفعـل سـوى الكلام؟!!.. فقط بعض من أوجاع روحي على أوراق؟!

يا ربي عندك أنت سر كل هذا الفائر المتدفق بداخلي. أخشى أن أطلب منك الفهم ومع ذلك لا أستطيع أن أغفل السؤال:

- يا رب لم منحتني كل تلك المشاعر مادام عليها أن تظل تحت أختام صدري أحرق بها ولا يخفف عني العذاب، أرضى بألم العـيش دون قدرة على فعل أشهد به لنفسي بأني أمرأة أفعال.

نعم أخشى أن أجد الجواب لأنني أعرف أن بعض الجهل رحمة وبعض العلم نقمة تماما كما أعرف أن في علمك مالا يستطيع استيعابه عقل إنسان، لكن ما حيلتي وعقلي مازال يطارد ماتستكين إليه روحي من رضا في كثير من الأحوال بألف ألف سؤال:

قاسية هي الأيدي الخاوية في حضرة الأحـلام الكبـيرة. كيـف أشهر سيفا في زمن يغتال الفرسان؟. كيف أقرض شعرا في زمن غث الكلام؟. كيف يمكن لي أن أعيد إلى البلداء أحاسيس الحياة والجمال؟.

أين هما فرشاتي وألواني لأرسم صورتي الأبدع التي لم يرسم ما يضاهيها من قبل فنان؟. لما لم أستطع عزف لحني الأروع حتى الآن؟. أين هي فسيفسائي وتحفي النابضة بالجمال والتي ستنفض القبح عـن ذاكرة الزمان والمكان؟.

لست طبيبة لكنني كنت أتمنى أن أكون كذلك.. أولد مـع كـل شفاء وأتنفس السعادة مع كل بسمة رضا تفصح عن راحة بعد طول عناء.

لست مهندسة لكنني كنت أتمنى أن أكون كذلك.. أشيد من الأبنية ما لم يطف سحره بخيال.. أحفر القنوات ليرتوي كل ظمآن.. أبذر الأخضر في الصحارى والقفار.. أطوف بين نجوم السماء أو أتخذ لي بيتا من محارات أعماق البحار.. أصادق الطير والوحش والنبات وحيوان الماء.. أتمنى ألا أموت قبل أن أفعل كل شيء.. لا بل الأبدع من كل شيء.

أعرف أنك تسمى ما أنا فيه بينك وبين نفسك ضربا من ضروب الجنون.. فليكن.. ربما تكون محقا فأنا بالفعل شقية بنفسي وأبذل طاقتي حتى لا أشقيك بها.

أنظر إلى أوراقي التي تزعم لي أنها قادرة على إثارة دهشة الآخرين.. أتمنى لو أصدق كذبك البرئ الطيب مثلك أو أن أصدق أن إدهاش البشر هو نصف الطريق إلى إيقاظهم. أجود وأجود بينما لا أكف عن تمنى أن يكون في كذبك المباح شئ من الحقيقة. حبيبي.. لا أحتمل أن يصبح كل ماتعانيه بسببي وكل هذا الهم الذي يستهلك قلبي وعمري مجرد كلام على أوراق.

وكأن ما يحدث ماهو إلا استدراج جميل نبه حواسي فتثاءبت بداخلي الذكريات. ابتسمت لتهليلات فرح الركاب بثبوت رؤية هلال أول رمضان. اكتفيت بالمتابعة وبفرحتي الخفية دون المشاركة في التهاني والدعوات الحارة المتبادلة بأن يعيده الله على الأمة بالنصر والخير والبركات.

ذكرى وحيدة انطلقت من ذاكرتي متجاوبة مع الموقف، صوت عم سيد المسحراتي في سكون ليل قريتنا المعطر بروائح أشجار الكافور والليمون. كلماته المنغمة المليئة بالشجن والمتبوعة بخمس نقرات متميزة على طبلته مازالت ترن في أذني مختلطة بتسابيح جدي وترتيل قيامه. يناديني باسمي بعد اسمي جدي وأبي:

– اصحى يا شيخ إبراهيم وأنت يا حاج إسماعيل وصحوا أدهم والحريم.. إصحى يا نايم وحّد الدايم إصحى وحد الكريم. في صالة الوصول لا أعرف كيف وجدني أبي قبل أن أفكر في تأمل الوجوه لاكتشافه، أعترف بدهشتي فأنا لم أرسل له صورتي!. كنت بلا حول ولا قوة. ما بين اعتصاره لي وقبلاته المتلاحقة وأنفاسه المتهدجة لم يكن بمقدوري سوى الارتخاء والاستسلام. حاولت اختلاس النظر إلى وجهه لمطابقته بصورته التي أسكنتها قلبي. عشرون عاما أفلحت في إضاءة ظلمة شعره بشيب قليل متناثر وفي غزو سمرة بشرته الطيبة بخطوط رفيعة وكأنها فعلت ذلك على استحياء. كنت أكرر وأنا بين

ذراعيه كلمة واحدة هادئة دافئة هي أبي وكأنما أعوض نفسي عن حرماني الطويل من مناداته بها.

يبتسم وهو يقودني بلف ذراعه الأيمن حول كتفي وكأنما يخشى أن أضيع منه ثانية:

– لن نذهب إلى البلد مباشرة، سنمر على مسجد سيدنا الحسين لنقرأ الفاتحة له ولجده عليه الصلاة والسلام وأسجد لله شكرا على رجوعك.

أسعدني قراره لكنه لم يعطني فرصة للرد وهو يضع حقيبتي في السيارة وينطلق. لطالما حلمت بهذا اللقاء وبقفزتي إلى حضنه الذي افتقدته طويلا. كم استعدت حواراتنا في الدين والسياسة وأنواع العلوم المختلفة حتى أبكاني حنيني إلى أيامه وظننت أن ما بقلبي تجاهه لا يعادله شيء، لم أكن أعرف أن حمم أشواقه ستغطى على مشاعري التي بدت وكأنها ثلجية مقارنة بحالته. يملأ عينيه من ملامحي بنظرة دامعة طويلة:

– تغيرتَ قليلا.. سأنسى غضبى من أمك لأنها حرمتني منك وحرّمت كل وسائل الاتصال بيننا. رسائلك المتباعدة التي كنت ترسلها دون علمها كانت الأمل الذي حفظ عقلي من الجنون. سأنسى تنقلها بك من مقاطعة إلى مقاطعة حتى لا أعثر عليك. سأصالح الدنيا كلها لأنك عدت. كنت أعرف أنك ستعود من غربتك لأنك ابن أبيك. تعرف أن ساعة القدر يعمى البصر، أمك فشلت في أخذك منى بعد الطلاق وأنت عمرك سنتين. كيدهن عظيم.. تعاطفت معها

وصدقتها لأنها كانت مجروحة بعد وفاة ابنها من زوجها الثاني. جدك حذرني بأن دموعها دموع مكر ولؤم. عشر سنوات استعاضت عنك خلالهم بالآخر وعندما فقدته في حادث حرقت قلبي بأخذك مني.

أبتسم له مظهرا تعاطفي. لا أعرف كيف يرى أنني لم أتغير إلا قليلاً؟!. يوم ركبت الطائرة بلا عودة لتجعلني أمي أزور أهلها في أوروبا - كما ادعت كذبا - كنت في الخامسة عشرة!. همس أبي:

- جدك أمر بذبح عجل للفقراء ليلة وصول برقية تأكيد موعد حضورك. البلد كلها ستفطر عندنا غدا، نذر ونذرته لله يوم رجوعك.

أخشى عليه ألم المعرفة. أريد أن أخبره بأنني أنتمي أيضا إلى وطن ثان ، تماما كما أنتمي إلى مصر وإلى أرفف مكتبتي القديمة المصطفة فيها كتب العقاد وحقي ومحفوظ وإدريس وجمال حمدان. لا أجرؤ على إخباره بأن زيارتي له ستكون خاطفة لأن حياتي العملية مرتبطة بهذه التي يسميها غربة.

عدت لأنني استطعت أخيرا التخلص من سيطرة أمي بانتقالي للعمل في مستشفى بمقاطعة أخرى غير تلك التي تعيش فيها مع زوجها. رضخت أخيرا لانفصالي الذي سعيت إليه دون أن تدرى، الحقيقة أنه قد غلب عليها الظن بأنها قد أفلحت في طمس النصف الخطأ من تكويني والذي تدعى أنها قد تسببت فيه كنتيجة لانبهارها الزائف بسحر الشرق.

يلكزني في ذراعي:

- ألم تفتقد زياراتنا مع جدك لسيدنا الحسين والسيدة زينب وستنا نفيسة؟ سنعود مع جدك إن شاء الله لنجدد تلك الأيام.

أتأمل الميدان.. كل شيء تغير إلى الأجمل وبقيت الروح الجميلة التي يضفيها صاحب المقام على المكان. مازال للمكان نفس الطابع شديد الخصوصية.. أصوات البشر الدافئة وأنوار الفرح وروائح البهار المختلطة بالبخور والتحف اليدوية المدهشة، مزيج من الماضي والحاضر. يختلط خشوع المصلين بابتهالات المحبين وصرخات المجاذيب ونظرات السياح المبهورين بنداءات الباعة المتمرسين ومساومات المشترين. أعود إلى الأيام الخوالي.. أنطق أخيرا:

- أريد أن أشرب أناب.

يتجهم لثانية وهو يتأملني.. أعرف لماذا تجهم فأنا لم أدقق في مخارج كلماتي. صرت حقا نصف غريب وقد شابت لكنتي تعرجات ندرة الممارسة.

يعود إلى ابتسامته الواثقة الطيبة:

- أول شيء سنفعله هو أن نعلمك أن تقول عناب. لا تقلق سنصلح لسانك.

أردت أن أسأله عن سر إصراره على قدومي في هذا الموعد تحديدا لكنني لم أشأ أن أزعجه أكثر بعوج لساني ففضلت الصمت.

اكتفيت بسياحة البصر بين مشاهد لطالما أوحشتني وأنا في طريقي معه إلى داخل المسجد. كان أقصى تواصل لي مع رمضان هو الصوم عندما أعلم بقدومه من الجاليات المسلمة الصغيرة والتي كنت

أتحايل دائما للوصول إليها في المقاطعات المختلفة دون علم أمي. كانت ترد على تحايلي بوضعي في مختلف أنواع المآزق معهم بدءا من إخفاء أو تمزيق الكتب التي أستعيرها منهم ونهاية بإغلاق خط الهاتف في وجوههم.

أبتهل إلى الله أمام مقصورة الحسين سيد الشهداء بأن يوفقني إلى الخير حيث كان. كان الغريب الذي بداخلي يقاوم أدهم المصري الآخذ في الاستحواذ على كياني. تجتذب تأوهات أبي وهو ساجد قبل أن يختم صلاته أنظار الحضور. يأخذ رأسي بين صدره وذراعه الأيسر وينخرط في البكاء ولا ينطق لسانه إلا بكلمات الشكر لرب العالمين. تذوب بلادة عيني وتنبثق دموعي وأنا ألصق رأسي بموضع القلب من صدره. أهمس له محافظا بصعوبة على سلامة نطقي:

- أريد أن أبقى لنصلي الفجر هنا.

يجيبني محاولا إخراج نفسه من حالته تلك:

- المسجد سيغلق بعد قليل حتى موعد الصلاة ثم إن جدك لن يتحمل تأخرنا والسحور منتظرنا في الدار.

كان قلبي مأخوذا بالمكان وأنا أغادر في تلك الليلة البديعة المليئة بالسحر والجمال، مندهشا من روعة توقيت حضوري حيث أرى الدنيا كلها متجملة مستبشرة طيبة القلب وكأنما تتنزل على البشر سكينة وسعادة احتفالا بمقدم شهر رمضان. أنا الآن في طريقي إلى جدي الذي لم يرعبني شيء طوال بعادي بقدر ما أرعبتني فكرة أن يختطفه الموت قبل أن أتمكن من رؤيته. أملأ عيني من جمال النيل المصاحب لنا

إلى منتصف المسافة إلى قريتنا تقريبا . يلمح أبي نظرة الشوق والحب في عيني فيهمس لي:

- كنت مطمئن إنك راجع.. شربت من النيل ولابد ترجع له.

يستقبلني هواء قريتنا بعطره الذي لم تنسه روحي وبأغنيات الأطفال وهم يضيئون بفوانيسهم ليلة لا ينتهي سهرها قبل أذان الفجر. تبتسم الوجوه البريئة وتمد الأكف بينما تكرر الحناجر نفس المقطع من الأغنية:

- إدونا العادة.. وحوي يا وحوي.. إدونا بزيادة.. وحوي يا وحوي.

يخرج أبي من جيبه جنيهات جديدة ويضع واحدا في كل كف وهو في قمة سعادته.

بدت الدار والشارع بأكمله تحت أفرع النور والزينات وكأن عرسا كبيرا يوشك أن يقام. يلمح أبي نظرة الدهشة في عيني:

- جدك حلف الكهرباء تزين البيت والشارع لآخر رمضان.. فرحان بك.

كنت أظن أشياء كثيرة قد طمست من ذاكرتي. التفت إلى الحقول البعيدة رغم إخفاء الظلمة لمعالمها، أعرف أن الساقية ما زالت هناك وأن شجرة الجميز العتيقة مازالت شامخة تحوي ذلك التجويف الذي كان يأخذني بداخله ما بين العصر والمغرب وكأنه حضن أمي الحقيقي. أذكر صفية ابنة عمتي وداد، ذات الأعوام الأربعة وهى تصر على أن أرفعها لتقتطف بكفها الصغير ثمرة برتقال من الحديقة الشرقية. تعود

صورة الدار كاملة إلى مخيلتي في نهار رمضان. أستعيد وجه أم عائشة المتوهج من صهد المواقد وهى جالسة لتعد مع باقي الخدم (الزفر) لأهل البيت وصواني الفتة باللحم لعابري السبيل . الطبالي المفروش تحتها الحصير لاستقبالهم كانت توضع هنا أمام المصطبة بينما تتراص دوارق الماء البارد والتمر هندي والكركديه والبلح بقمر الدين فوق المصطبة. لم يسقط من ذاكرتي شيء وكأنني كنت هنا بالأمس. كل ما أريد أن أسقطه من ذاكرتي الآن هو صرخات أمي الرافضة كلما أبديت رغبة في رؤية أبي. كانت تصر على أنه وإن كان طبيبا وأستاذا فهو في النهاية لم يستطيع أن يزيد عن كونه فلاحا متخلفا أرادها مثله.

ينفتح باب الدار لاستقبالنا بزغرودة طويلة تغمرني بالبهجة وتقذف بي إلى ليالي الأفراح المختلط فيها التصفيق بالغناء بدقات الطبلة الفلاحي. أتأمل الوجه الذي لا أستطيع نسيانه.. تضحك بسعادة طاغية وهى تقول:

- حمدا لله على سلامتك يا أدهم.. نورت بيتك.

أبتسم وأنا أؤكد لنفسي أنها عمتي وداد وإن كانت قد ازدادت جمالا وشبابا عما تركتها. أهم بالدخول إلى حضنها فترتبك وتتراجع وقد انسكبت تحت جلد بشرتها العاجية حمرة حياء مدهشة.

يلكزني أبى وملامحه بين الدهشة والرغبة في المداعبة:

- يا ولد نسيت عاداتنا اللي كرهت أمك فينا.. بقيت من هناك؟. الأحضان للمحارم فقط.

أتأملها بدهشة:

- عمتي وداد محارم.

تبتسم بشقاوة ويتعالى نداءها بصوت له وقع محبب في قلبي:

- تعالي يا عمته وداد.. ابن أخيك فاكرني إنت. يا بني هي عمتك ها يبقى عمرها عشرين سنة على طول. عمتك كبرت وصفية بنتها كمان كبرت تأخذني عمتي إلى حضنها بينما أرقب من خلف كتفها أصابع تلك الشقية الجميلة الخالية من خاتم ارتباط. تجذبني عمتي من ذراعي إلى القاعة التي يتمدد جدي فوق واحدة من أرائكها البلدية. يفرد ذراعيه مسقطا عصاته المسندة إلى جواره والتي لطالما أرهبتني. يضمني بكفه المرتعشة وعظامه الواهنة إلى أكثر صدور العالم دفئا. يقبل رأسي فتبلل دموعه جبهتي. لا أعرف أين ذهب الغريب الذي لازمني منذ وصلت. كنت أنتمي كلية إلى هؤلاء البشر وهذا المكان.

أتأمل وجه أبي الذي تقبل عقم زوجته الثانية التي رحلت قريبا برضاء تام لعلمه بأنني سأعود، ذلك الفلاح الذي اختار أن تكون عودتي إلى الوطن في هذا اليوم تحديدا ليفتح أقفال جب ذكرياتي مطلقا أحلاها.

يفاجئني جدي بصوته الذي كان جهوريا فصار عميقا هادئا:

- هدية رجوعك من جدك مستشفى أبوك في البلد سننقلها باسمك، تديرها معه، وبعد فترة الخبرة اللازمة تديرها أنت ويكتفي هو بالعيادة والجامعة، وممكن تساعده في العيادة وفي النهاية كله لك.

راقتني الفكرة فانحنيت أقبل يده كما كنت أفعل دائما عندما كان يمنحني شيئا.

يحمل الهواء صوت دقات طبلة المسحراتي. يتغنى بالكلمات صوت شجي لكنه ليس كصوت عم سيد:

- إصحى يا نايم وحد الدايم .. وحد الرزاق.. رمضان كريم.

أوجه كلامي لأبى:

- عم سيد المسحراتي موجود؟

يهمس متأسيا:

- تعيش أنت يا حبيبي.. اللي خلف ما ماتش.. ابنه بيسحرنا.



أبلل قدمي وكأنها جذوري التي ستسقى سائر جسدي منـك. أصالحك بعد طول غياب، هيا اقبل واهمس لي كسابق عهدك، لفنـي من جديد بغلالات سحرك واملأ صدري بعطرك واتخذ من عروقي مجرى آخر لك. اشتقت حكايات العصفور الراقص فـوق الغـصن هناك. عناق الموج لكفي وأنا أغترف منك لأزيل عن وجهـي همـوم الدنيا فتخصني ببعض الأسرار، رائحة أنفاسك وأنت تجود بدفقات تنبض بالحياة فتروي ظمأ الشاطيء وتجعل ربيعه باقيا مهما تقلب وجه الزمان. هيا حبيبي لا تبخل على فهذه المرة أريد كل الأسرار.

يتعجبـون مـن رقتـي وفيـضان مـشاعري فأقـسم أن سري أنت. يندهشون لإصراري وقوة عزيمتـي وربـما جنـوني الخـلاق أو نوبات غضب الحليم التي يحـذرونها فتقفـز أنـت أيـضا إلى مقدمـة الأسباب.

اصدقني كما هو عهدي بك.. هل كانت حكايات جدتي التـي أبعدتني عنك حقيقة أم أن جمالك وسحرك هما اللذان جعلا عشاقك ينسجون حولك الأساطير؟. يقسم أحدهم أنه كاد أن يسحر ويفقـد عقله لولا أنه توقف عن استكمال المسير إلى حافة جنـة منبعـك. عـم سعيد الصياد يقسم أيضا أن الحياة بين أحضانك تغنـى عـن الـدنيا. ضحكنا على خالتي صفية عندما أقسمت أنها رأت في أعماقـك بيوتـا وقصورا، تهامسنا بأنها تخاريف الصدمة، كان ذلك يوم جرف التيـار

جرتها وكادت تغرق وهى تحاول إرجاعها لولا إنقاذ عم سعيد لها، أما أنا فأرى أن أجمل لحظات الحب تكون على صفحتك وأعمق تهدئة لآلام القلوب تكون أيضا بالاختلاء بالنفس عندك. هل تذكر لي حبيبي أنني لم أكن لأقسو على أسراب صغارك؟ لا أظنك كنت تغضب من تخابثي بوضع المصفاة الصغيرة بهدوء أسفل صفحتك حتى يمر السرب ثم رفعها بغتة مصطادة له.

تعلم أنني كنت دائما ما أعيدها على الفور إلي حضنك الطيب. كانت مجرد شقاوة طفلة تمتع عينيها بلمعان الصغار الفضية المتقافزة تحت ضوء الشمس. آلمتني كثيرا عندما شكوت لي متوجعا من إغداقك على البشر ومقابلتهم لعطاءاتك بالإساءة، يومها أيضا عاتبتني بحنو على ابتعادي المفاجئ بيننا يداعبني نسيمك حاملا همسك لي وأنا في الشرفة. تمنيت لو أستطيع محو دموعك بكفي لكنني ليلتها خفت الاقتراب منك.

كنت ما زلت صغيرة وكانت حكايات جدتي هذه المرة عنك قد أثرت في حقا. بدت وكأنها تؤكد خرافات خالتي صفية التي تهكمنا عليها من قبل، مازلت أذكر القصة كاملة التي حكتها جدتي على أنها حدثت قبل ميلادي بسنوات بعيدة.

يومها أقسمت أنها عاشت عمرها لا تنسى وجه تلك الكلبة الحزينة التي تسللت ذات ليلة إلى فوهة الفرن الطيني في وسط الدار. أثارت عيناها المسكونة بالألم إشفاق الجميع. تركوها وهم موقنون من قرب موتها وقد رفضت الطعام ليومين رغم كل محاولات إطعامها. في

الليلة الثالثة وفي ضوء ما بعد الغروب، ذهبت راضية الخادمة لتملأ الماء، وبينما ترفع الطست النحاسي على رأسها فاجأها الصوت. التفتت لتجد تلك المرأة واقفة على حافة الشاطئ بينما يتدلى شعرها حتى الماء. ارتعدت للحظة وسمرها الخوف مكانها. كان صوت المرأة عميقا سحريا حزينا وهى تطلب من راضية طلبها العجيب، الأعجب أن راضية نفذت ما طلبته منها تلك المرأة حرفيا عندما عادت إل ى الدار. وقفت في وسط الدار وعلى مقربة من الفرن وقالت:

- يا نهرية يا بنت قاسم ارجعي لأهلك، أخوك مات الليلة.

تسمرت الكلمات على شفتي جدتي التي أخذت تتهم راضية بالجنون لأنها تكلم الهواء. باغتها الصراخ حتى كادت هي وراضية أن تموتا رعبا وهما تشاهدان الكلبة تنتفض من فوهة الفرن وتنتصب امرأة جميلة وتخرج صارخة منتحبة باتجاهك. أرعبتني القصة، أخافني أن يكون أحد أسرارك أنك مسكون بالجان فلم أقربك لسنوات طويلة. اكتفيت بمراقبتك من الشرفة ولكنك مع جفائي لم تبخل على بالإفصاح عن أسرار جديدة. هل تعرف الآن كم أعشقك؟.

لقد ألقيت حقيبتي على فراشي وتركت زوجي في أحضان الأهل وجئت لأملأ عيني وروحي منك، فلتتسرب إلى شراييني ولتسكنني كما سكنتني طوال سنتين من الغربة. أعرف الآن أن اكتفائي بالنظر إليك كان غباء وأن الحرمان الكامل منك والشوق الجارف لك هما اللذان بددا مخاوفي القديمة.. لم يعد الأمر يهمني فأنا لا أخاف سكانك حتى وإن كانوا من الجان.

فهرس

رقـم الإيــداع: ٢٠٠٥/١٦٨٣٣
الترقيم الدولي:977-6156-12-6